وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الدكتور يحي فارس بالمدية

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم العلوم الانسانية

المشروع النهضوي في فكر ابن العنابي الجزائري وخير الدين التونسي

من خلال كتاب السعي المحمود في نظام الجنود وأقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك

مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد:

سعيد فرج

صدام حسين قداشي

تحت إشراف:

أ: كريم مقنوش

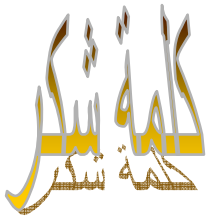
كريم مقنوش	مشرفا ومقررا
الصادق دهاش	رئيسا
مولود قرين	مناقشا

السنة الجامعية: 1436-1437هـ /2015-2016م



الحمد لله الذي تتم به الصالحات والصلاة والسلام

على أشرف خلق الله محمد ابن عبد الله



أولا وأخيرا الشكر لله عز وجل على توفيقه لنا في إنجاز هذا العمل المتواضع وما توفيقنا إلا به

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى أستاذنا الفاضل كريم مقنوش الذي لم يبخل علينا بتقديم يد العون والمساعدة

وفي هذا المقام لا يسعنا إلا أن نتقدم بجزيل الشكر كذلك لكل أساتذة التاريخ والطاقم الإداري لقسم العلوم الإنسانية .



أهدي هذا العمل المتواضع إلى أمي وأبي اللذان سهرا

على تقديم كل ما بوسعها في سبيل دعمي لإتمام مشواري

الدراسي من أول مرحلة إلى آخرها جزاهم الله عني كل خير وإلى

كافة أسرتي وأحبتي وكل من يعرفني من بعيد أو قريب

فرج سعيد

إهداء

أهدي ثمرة هذا العمل إلى الوالدة العزيزة التي فتحت عيناي لأجد حبها وحنانها

وإلى الوالد الكريم الذي كان له دور كبير في الكفاح من اجل أن أصل إلى هذه المرتبة وإكمال دراستي

حفظهما الله وأطال عمرهما

كما اهديها لسائر إخوتي وإلى من يعرفني.

قداشي صدام حسين

قائمة المختصرات

ج	الجزء
ط	الطبعة
ص	الصفحة
د ط	دون طبعة
م	ميلادي
هـ	هجري
ص ص	صفحتين متتاليتين
ص-ص	أكثر من صفحتين

المقدمة

المقدمة:

عرف العالم العربي جمودا فكريا في عهد الدولة العثمانية، اللهم بعض الانبعاثات الفكرية هنا وهناك، اكتفوا بمجرد الاهتمام بجانب العلوم الشرعية ومما زاد الطين بلة هو تشجيع الدولة العثمانية الطرق الصوفية التي كانت صمام الأمان الذي يضمن بقاؤها، هذا لم يمنع من ظهور بعض الانبعاثات الفكرية والذي حمل لوائها بعض المفكرين الذين كان أكبر همهم إصلاح ما يمكن إصلاحه وتدارك الأمر قبل فوات الأوان وخاصة وأن الزحف الأوروبي على الأبواب والكثير من الأمم العربية وقعت تحت وطأة الاستعمار، لقد كرس الاستعمار كل جهوده لإبقاء العالم العربي الإسلامي في واقعه المزري مشبعا في ذلك الخرافات والأفكار المتزمة التي ساهمت في تخلف الأمم العربية بدل من تقدمها.

هذا الوضع ساهم في ظهور تيارين مصلحين كل منه له إيديولوجية والمرجعية التي يستند إليها في عملية الإصلاح والتحديث، التيار الأول يرى أن المرجعية الإسلامية وحدها السبيل للنهوض بالأمة العربية وأن ما يحمله الآخر (الأوروبيين) فيه مضرة بالدين لا يتناسب مع واقع المجتمع الإسلامي,والتيار الثاني يرى إمكانية التوفيق بين الدين الاسلامي وماوصل اليه الغرب.

ومن هؤلاء المفكرين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة النهوض بمجتمعاتها بصفة خاصة والمجتمع العربي الإسلامي بصفة عامة " ابن العنابي " التي تصفه بعض الكتابات بأنه رائد التجديد الإسلامي في العصر الحديث، هذا الأخير ألف كتاب "السعي المحمود في نظام الجنود" كنموذج يقتدى به في تطوير الجيش واستشهادا إلى نصوص الشريعة الإسلامية والتجارب الناجحة التي خاضها العرب في هذا المضمار والمفكر الثاني هو" خبر الدين التونسي "صاحب كتاب" أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك " حيث يحتوي هذا الكتاب على مقدمة وبها نجد عصارة فكره الإصلاحي وتاريخ يتضمن أخبار الممالك الأوروبية وما هي عليه من أحوال قي شتى المجالات.

يعود سبب اختيارنا لهذا الموضوع هو تقديم نظرة عن فكرة ابن العنابي وخير الدين التونسي باعتبار أن هذا النوع من الدراسات التاريخية ترغب الباحث على الخوض فيها، وتسليط الضوء على ما فيها من أخبار وسير تسلي الخاطر وتدفع الأفئدة إلى وجوب الإقتداء بأخبار هؤلاء الرجال، زيادة على أن موضوع الإصلاح والحداثة هو من المواضيع الشيقة والمهمة التي تتطلب الخوض فيها وخاصة في عصور كانت أبرز معالمها الضعف والإنحطاط، باعتبار أنها تكون الدليل والضامن الوحيد للخروج من حالة الضعف لمواكبة الركب.

أما عن أهمية الدراسة فتكمن في كونها تحاول كشف الستار عن أفكار هذين الرجلين اللذان وإن تطرقت بعض الدراسات إليهما إلا أنها مازالت تحتاج إلى مزيد من التعلم والنظر والتحليل في مستويات أعلى، وعلى أساس متقدم حاولنا أن نعرج على دراسة أهم الأفكار التي طرحها المفكرين، تقول بعض الأفكار فقط لأن دراسة فكر مصلحين مثل ابن العنابي وخير الدين التونسي تستلزم مزيدا من الوقت للنظر والبحث والتحليل لأنه يستحيل أن يستوفي أي دارس لجميع الأفكار الإصلاحية التي طرحها هاذين في فترة وجيزة.

إذن ماهي المبادئ والأطرالتي تبناها المفكرين ومدى نجاعتها في تحسين الواقع العربي الإسلامي؟.وهنا يتبادر في أذهاننا جملة من التساؤلات وهي كالتالي.

- ما هي أهم ملامح الواقع الذي عايشه المفكرين في بلديهما ؟
- وما هي المرجعية الفكرية التي تبناها الاثنين ؟وما المصير الذي الذي لقاه فكرهما؟.

وللإجابة على هذه التساؤلات استندنا على بعض الدراسات السابقة التي كان لها علاقة مباشرة بالموضوع بدرجة أولى كتاب أبو القاسم سعد الله بعنوان المفتي الجزائري ابن العنابي رائد التجديد الإسلامي، وخير الدين التونسي وكتابه أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك.

بالإضافة إلى اعتمادنا على القرآن الكريم الذي يعتبر مصدر أساسي في هذا الموضوع، إضافة إلى ذلك اعتمدنا على مجموعة من المراجع المساعدة في ذلك مثل سمير أبو حمدان وكتابه خير الدين التونسي، إضافة إلى دراسة قيمة لفريد حاجي بعنوان عرض لنظرة ابن العنابي وخير الدين التونسي للإصلاح المسعى والمآل وهي مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إضافة إلى كتاب أبو القاسم سعد الله في كتابه محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث.

اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج التاريخي التحليلي بحيث أننا حاولنا تحليل بعض أفكار الرجلين بالاعتماد على بعض المؤلفات الأخرى التي لها علاقة بالموضوع، كما اعتمدنا أيضا على المنهج الوصفي وذلك من خلال إبراز أهم الأحداث التي نشأ وعايشها كلا من الرجلين.

وبغية الإحاطة بالموضوع ولو بشيء يسير عمدنا إلى تقسيم عرضنا هذا إلى أربعة مباحث، كل مبحث يندرج منه عنصرين.

المبحث الأول بعنوان أوضاع الجزائر وتونس خلال عصري ابن العنابي وخير الدين التونسي، الذي ينقسم بدوره إلى عنصرين، الأول خاص بأوضاع الجزائر خلال عصر ابن العنابي،

والثاني خاص بأوضاع تونس خلال عصر خير الدين التونسي،**والمبحث الثاني** بعنوان السيرة ابن العنابي وخير الدين التونسي الذي يندرج ضمنه عنصرين الأول خاص بسيرة ابن العنابي، والثاني حول سيرة خبر الدين التونسي،

المبحث الثالث جاء بعنوان الفكر الإصلاحي لابن العنابي في المجال السياسي والعسكري ويندرج منه عنصرين الأول خاص بالمجال السياسي والثاني بالمجال العسكري،

والمبحث الرابع بعنوان الفكر الإصلاحي لخير الدين التونسي في المجال السياسي والعسكري، ويندرج منه عنصرين، الأول في المجال السياسي والثاني المجال العسكري.

ومن بين الصعوبات التي واجهتنا ضيق الوقت وقلة المصادر والمراجع.

المبحث الأول

أوضاع الجزائر وتونس خلال عصري ابن العنابي وخير الدين التونسي

أولا– أوضاع الجزائر خلال عصر ابن العنابي

ثانيا– أوضاع تونس خلال عصر خير الدين التونسي

أولا- أوضاع الجزائر خلال عصر ابن العنابي:

تميزت فترة ابن العنابي بمجموعة من المظاهر التي كانت وليدة تراكم مجموعة من المستجدات فرضتها طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبين إيالة الجزائر والدولة العثمانية، إضافة إلى طبعة العلاقة القائمة على أساس تفوق القوي على الضعيف، وكانت معالمها واضحة قي علاقة إيالة الجزائر مع الدول الأوروبية عامة وفرنسا خاصة.

1- الأوضاع السياسية والإدارية:

أهم ما ميز الجزائر في الثلث الأخير من القرن 18م وإلى غاية احتلالها من طرف فرنسا سنة 1830م هو عدم الاستقرار السياسي والإداري بحيث انه كان اكبر معضلة للداي هي فرض الأمن والاستقرار في الإيالة [1] بسبب الفوضى الناتجة عن عزل البايات وما يترتب عليه من تداعيات [2]، إذ شاعت ظاهرة اغتيال الحكم وترجع خلفية هذه الظاهرة إلى التنافس بين طائفة رياس البحر والجيش البري (اليولداش)[3]

هذا الصراع على مستوى السلطة المركزية انعكس سلبا على الرجل العادي من الفلاحين وأصحاب الحرف والتجارة لأنه هو الدافع للضرائب وهو وقود الفتن[4].

ومن بين أسباب تدهور الوضع السياسي في الجزائر خلال هذه الفترة هو سوء تصرف الداي مع قناصل الدولة الأوروبية وتلهفه على المال ومعاناة خزينة الدولة من نضوب مواردها المعتادة وخاصة فيما يتعلق بغنائم الجهاد البحري مما أدى إلى تعدد الانتفاضات الشعبية ضد الحكم العثماني[5]، ومن أهم هذه الثورات ثورة الدرقاوية وثورة ابن الاحرش التي ذاقت ذرعا يتجاوزات حكومة الداي ضد

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 47.

[2]- حمدان خوجه، المرآة، تحقيق محمد العربي الزبيري، د ط، منشوراتANEB ، 2005، ص 111.

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 49.

[4]- أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي رائد التجديد الجزائري,1775-1852م، د ط، موقم للنشر، 2011، ص 12.

[5]-عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية إلى غاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997، ص 79.

الأهالي، ويرجع سبب إتجاه حكومة الداي إلى هذه السياسة إلى كثرة الأوبئة والمجاعات وتكالب الحملات الأوروبية عليها مما حتم عليها جبرا لا اختيار أن تتوجه نحو هذا المسار[1].

أما عن نظام الحكم فإن الباشا كان هو أكبر سلطة في البلاد يقوم بمهمته بمساعدة عدد من المجالس والوزراء، فهناك ديوان عادي يضم عددا من المستشارين الكبار، وكان هذا كبير الاجتماع والديوان الأعظم الذي كان أعضاؤه من كبار الضباط حوالي 80 عضو بالإضافة إلى أعضاء الديوان العادي وكان لا يجتمع إلا بشأن القضايا العامة كالحرب والسلم، ويحضر جلساته آغا القمرين (الرئيس النظري للانكشارية) والمفتيان المالكي والحنفي وكتاب الدولة الأربعة الكبار وهناك أيضا ديوان البحر الذي كان يجتمع تحت رئاسة وكيل الحرج أو وزير البحرية، الذي كان يتكون من زعماء الأسطول البحري[2].

إلا أن أكبر ميزة سلبية تحسب ضد الحكم التركي في الجزائر هي استئثارهم بالحكم واحتكارهم السلطة إذ أنه منذ أن وطئت أقدام العثمانيين الجزائر لم يتقلد أي جزائري منصب الداي أو الباشا، وإن سمح في أحسن الأحوال بتقليد بعض المناصب والوظائف السامية في الحكم مثل (الإفتاء).

أما من الجانب الإداري فقد كانت إيالة الجزائر مقسمة إداريا إلى ثلاث بيالك: بايلك الشرق عاصمته قسنطينة، وبايلك الغرب عاصمته معسكر ثم وهران، بايلك التيطري عاصمته المدية، إضافة غلى دا السلطان التي تعتبر مركز الحكم مقرها مدينة الجزائر، وأهم ما ميز الإدارة العثمانية أنها بقت محافظة ومتمسكة بالتقاليد الدينية والإجتماعية إلا أنه في أواخر العهد العثماني في الجزائر أصبحت تمتاز بالقسوة والعقوبات وسرعة التقاضي وتنفيذ الأحكام، كما تمتاز بالتعفن الإداري والإجتماعي وبالرشوة وبالتوريط والتواكل والغش [3].

هذه بعض ملامح الأوضاع السياسية والإدارية التي عرفتها إيالة الجزائر أثناء عصر ابن العنابي مما حتم بضرورة ظهور طبقة مثقفة تسعى لتدارك الوضع وتصحيح ما يمكن تصحيحه.

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، محاضرات...، المرجع السابق، ص 11.

[2]- نفسه، ص 49.

[3]- نفسه، ص 55.

2- الأوضاع الاقتصادية والعسكرية:

كانت عملية الجهاد البحري التي تمارسه إيالة الجزائر في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في الدعامة الأساسية في خزينة الدولة، وهي المتحكمة في استقرار البلاد من عدمها باعتبارها المورد المالي الأساسي الذي تضمن به الدولة تامين مرتبات الجند وفرض الأمن في كامل قطر الايالة[1].

حالت الحروب بين الجزائر والدول الأوروبية دون تمديد بعض المنتجات ولم تبقى إلا الأسواق الداخلية التي حكمت عليها قداحة الضرائب بالنضوب، كما أن انعدام أسواق واسعة حال دون تطورها وأصبح كل همها تخفيض التكاليف للبحث عن الأبعاد الجمالية، وما زاد الطين بلة هو انعدام الاتصالات التجارية التي كانت تربط بين المغرب العربي من جهة وإفريقيا من جهة أخرى، هذا على المستوى الداخلي أما على المستوى الخارجي فبالرغم من تنوع المنتجات المصدرة إلا أن نسبة كبيرة من الأرباح كانت في معظمها تذهب إلى تجار اليهود وكبار الموظفين والضباط الأتراك، الذي لم يكن همهم تطوير وتجديد الاقتصاد المحلي وإنما تكديس الثروات، وزاد الأمر خطورة بتوسيع الملكية الإقطاعية كما أن الاحتكارات التي كانت تمارسها هذه الطبقة حال دون تكوين طبقة برجوازية حقيقية ومما يلاحظ على الاقتصاد الجزائري في هذه الفترة أنه سجل عجزا تجاريا وأصبح في موقف التبعية للاقتصاد الأوروبي، وهذا ما دفع البلاد الأوروبية على رأسها فرنسا إلى التفكير في تعزيز سيطرتها الاقتصادية على الجزائر[2].

أما الصناعة فقد كانت الجزائر تعرف معظم الصناعات التي تعرفها أوروبا مثل " الدباغة وصناعة الأحذية والنسيج، الحدادة، صناعة السلاح "، إلا انه بالرغم من ذلك لم تكن مزدهرة تماما في حين نجد صناعة الخشب وبناء السفن هي الصناعة الرائجة والمزدهرة في تلك الفترة [3].

---

[1]- وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 323.

[2]- مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج3، د ط، مكتبة النهضة الجزائرية، 1964، ص-ص 310،311،312.

[3]- نفسه, ص 316.

أما في المجال الزراعي فإن سكان السهول كانوا يشتغلون بتربية المواشي سواء في نطاق أراضي العروشية أو باكتراء المراعي، وكثيرا ما يكون سكان السهول خاضعين لسلطة شبه القبيلة [1].

وينقسم سكان السهول إلى قسمين: أغنياء يعيشون تحت الخيام الفخمة أو في المنازل الكبيرة، وفلاحون فقراء يعيشون داخل الأكواخ ولا يكادون من عملهم ما يسد تكاليف الملبس والمأكل [2]، وكان الرعي منتشر بكثرة بالجزائر في الريف خاصة، وما ساعد ذلك هو إحترام الأتراك للسلطة التقليدية المتمثلة في رؤساء القبائل وما ساعد ذلك أيضا شساعة الأراضي وخصوبة التربة وما كان لها من أثر في تنوع المحاصيل الزراعية وتنمية الثروة الحيوانية[3].

أما في المجال العسكري فإن الجيش البري المعروف باليولداش كان هو العمود الفقري في البلاد إذا أن الجندي العثماني في الجزائر يتحلى بالانضباط والشجاعة والتواضع إضافة إلى تحليهم بالخشونة والتهور وبالتعالي على الأهالي وقد انخفضت معنوياتهم وقيمتهم بعد ثورة 1817 م على عهد " علي خوجا باشا " حيث قتل منهم الكثير وبدأ في تأسيس جيش محلي غير أن مشروعه لم يتحقق تماما [4]، غير أن أهم ميزة ميزت الجهاز العسكري في تلك الفترة هو الصراع المحتدم بين الجيش البري وبين الجيش البحري، حيث رغبت كل فئة أن يختار الداي من بين رجالهم [5]

ويرجع السبب في تدهور الجهاز العسكري هو أن طريقة التجنيد اختلفت عما كانت عليه سابقا، إذ أن المندوبين المبعوثين إلى أزمير من أجل جمع الجنود تخلو عن الطريقة القديمة التي تعتمد على جمع الرجال ذوي الجاه والمكانة وفتحوا الباب أمام رجال أدبوا وأودينوا وكان يوجد من بينهم يهود ويونانيون، وهذا ما كان من بين العوامل التي أدت إلى فساد الجهاز العسكري، إذ أصبحت

---

[1]– مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق ,ص 317.

[2]– نفسه.

[3]– ويليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، د ط، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص–ص135,136,142.

[4]– أبو القاسم سعد الله، محاضرات...، المرجع السابق، ص 50.

[5]– ابن المفتي حسن بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر وعلمائها، تحقيق فارس كعوان، د ط، بيت الحكمة، 2008، ص 18.

هذه المليشية لا مبدأ لها ترتكب المخالفات ضد البدو والقبائل وتقوم بإشعال الثوارت وقلب قادة الدولة بحسب هواهم [1].

أما في تركيبة الجيش فإنه كان مقسم إلى قسمين: الجيش النظامي الذي يتكون من الجيش البري والأسطول البحري، ومن الجيش غير النظامي المتكون من قبائل المخزن والكراغلة، أما عن أسلحته المستخدمة فإنها لم تكن تختلف عما كانت عنه في الدولة العثمانية وأصبحت عاجزة أمام تطور أسلحة الجيوش الأوروبية وأساليب التدريب الحديثة، وبذلك اختل ميزان القوة لصالح القوة الأوروبية [2].

بعد انهيار المؤسسة العسكرية التي كانت تعتبر الضامن الوحيد لبقاء ايالة الجزائر على مسرح الأحداث السياسية، أضحت لقمة سهلة أسالت لعاب الدول الأوروبية الطامعة فيها.

3- الأوضاع الاجتماعية والثقافية:

إن سكان إيالة الجزائر ليسوا كلهم من أصول واحدة إنما تعددت وتنوعت التركيبة السكانية للمجتمع الجزائري ,حيث تجد فئة الأتراك وهم الذين ينحدرون من آباء وأمهات أتراك وهم في الغالب يستقدمون من المشرق أو قد يأتي بهم رياس البحر بالقوة إلى الجزائر، وبالدرجة الثانية نجد فئة الكراغلة وهم نتاج زواج الرجال الأتراك بنساء جزائريات، كما نجد فئة اليهود حيث كانت مدينة الجزائر آهلة بهم زيادة إلى فئة الأسرى والذي كان غالبيتهم من الأسبان والبرتغال وإيطاليا وألمانيا وكان عددهم قليل ويحضون باحترام الأتراك، في حين نجد أن العنصر المحلي ينقسم إلى سكان الحضر المقيمين في المدن وسكان البدو المقيمين في الريف [3]، حيث كان سكان الريف يمثلون ما نسبته 90% يخضعون للسلطة القبلية أو ما يعرف بشيخ القبيلة نشاطهم الرئيسي الزراعة والرعي، أما سكان المدن فتنوعت نشاطاتهم بتنوع الحرف والمهن المنتشرة في مدنهم [4].

---

[1]- حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص-ص 111،113.

[2]- حنيفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1428هـ/2007م، ص-ص 13،78،89،95.

[3]- ج،أو، هابنسترايت (J.E.Hebenstreit)، رحلة العالم الألماني، ج،أو، هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس(1145هـ-1732م)، ترجمة وتعليق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، د ط، دار الغرب الإسلامي، تونس، ص ص 29،32.

[4]- مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص 316.

أما عن نسبة السكان فإن التقديرات تختلف حيث تشير بعض الإحصائيات إلا أن عدد سكان القطر الجزائري في أواخر الحكم العثماني كان يتراوح بين 3 و3.5 مليون نسمة[1]، بينما قدرها حمدان خوجة بحوالي 10 ملايين نسمة [2]، غير أن هذه النسبة لم تكن ثابتة بسبب الأوبئة والمجاعات والضغوطات السياسية التي مرت بالبلاد وما كان لها من تداعيات [3].

ومما يجدر الإشارة إليه إلى أن تنوع الفئات الاجتماعية وتفاعلها أنعكس بالإيجاب في تحسين الأوضاع الاقتصادية وحتى الثقافية وخاصة فئة الأندلسيين وما حملته من علوم وفنون.

أما المجال الثقافي فإن الحياة في الجزائر تميزت بطابع إسلامي ,هذا لا يعني أن المحتوى الديني هي الصبغة الوحيدة على التعليم وإنما الصبغة الحضارية أيضا بما فيها من تعليم وتنظيم ثقافي وقضائي وعلاقات اجتماعية وفكرية، هذا لا يعني أن كامل إيالة الجزائر كانت على هذا النحو وإنما التعليم يختلف في الريف عنه في المدينة [4]، وكان الوقف هو المورد المالي الأساسي لدعم التعليم وتشجيعه، حيث تشير بعض الدراسات المدارس والمساجد والمنشآت العامة ودور العلم كانت عامرة وبرز خلالها نخبة من المفكرين والعلماء من بينهم " عيسى بن محمد الثعالبي" و"سعيد المغربي" و" أحمد بن عمارة الجزائري" و" المفتي ابن العنابي" [5].

لعبت الزوايا دورا كبيرا في تشجيع التعليم بحيث أنها كانت تضمن للطلبة نظاما داخليا يعفيهم من تكاليف ونفقات المأوى والملبس، وبذلك فقد أوجدت نوعا من التوازن بين الريف والمدينة، إلا أن الملاحظ أن الأتراك لم يعتنوا بالثقافة مثل عنايتهم بالحرب وفسحوا المجال للجزائريين للإهتمام بتطوير المجال الثقافي [6].

بعد تسلط الفرنسيين على مدينة الجزائر يوم 05 جويلية 1830م ,توعد القائد الفرنسي للحملة "ديبورمون" للجزائريين بتأمين أموالهم وممتلكاتهم واحترام عاداتهم وتقاليدهم وشعائرهم الدينية فيما يعرف بمعاهدة الإستسلام، كذلك سمح للداي بنقل أمواله ومغادرة البلاد نحو المكان الذي

---

[1]– عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 73.

[2]– حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 15.

[3]– عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 73.

[4]– مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص 319.

[5]– أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، د ط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة, 2001، ص 74.

[6]– مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص ص 318، 319.

يرغب فيه رفقة عائلته، إلا أن الفرنسيين لم يوفوا ببنود هذه المعاهدة، إذ اتجه ديبورمون إلى إنشاء مجلس من رؤساء الجنود لضبط الأموال والجواهر الموجودة في قصر الداي والإستحواذ على مئونة الجزائريين من حبوب وعتاد حربي.

أما عن مصير الجيش الإنكشاري فإنهم جمعوا ونقلوا إلى أزمير [1]، بعد أن قام الفرنسيون بالتخلص من السلطة السياسية والعسكرية وجهوا أنظارهم إلى باقي القطاعات الأخرى بهدف السيطرة التامة عليها، حيث لجئوا إلى تجريد الجزائريين من أراضيهم التي تعتبر عصب الحياة والمصدر الرئيسي لأرزاقهم، وبالتالي إفقارهم وتجويعهم، كما وضعوا أيديهم على مؤسسة الوقف وصادروا أموالهم وممتلكاتهم بدون وجه حق، والهدف الأساسي من ذلك هو تجفيف منابع تمويل التعليم وبالتالي تدني المستوى الثقافي بين الأوساط الشعبية [2].

بعد أن وضعت فرنسا يدها على الجزائر لم يقف الشعب مكتوف الأيدي بمختلف فئاته الإجتماعية وعلى رأسهم الطبقة المثقفة التي مثلها أعيان مدينة الجزائر إذ استنكروا هذه الهمجية الاستعمارية, وسارعوا إلى كتابة العرائض والرسائل ومخاطبة الرأي العام باسم الإنسانية وفضح تجاوزات الوجود الفرنسي في الجزائر والاتصال بكل الجهات الممكنة لمساعدتهم على الخروج من هذا الوضع وكان على رأسهم "ابن العنابي" الذي انتهى مصيره بعد معارضته إلى طرده خارج الجزائر[3].

ثانيا– أوضاع تونس خلال عصر خير الدين التونسي:

لم تكن تونس خلال القرن 19م تختلف عن الواقع الذي عرفه العالم العربي عامة ودول شمال إفريقيا خاصة سواء في الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، فالضعف والانحطاط بلغ بها مبلغا كبيرا وأضحى يدفع بها نحو هاوية عميقة من التخلف والانحطاط[4].

---

[1]– الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، د ط، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903، ص ص,86,85 .

[2]– عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 103.

[3]– أبو القاسم سعد الله، محاضرات...، المرجع السابق، ص 67.

[4]– سمير أبو حمدان، خير الدين التونسي، د ط, دار الكتاب العالمي، بيروت لبنان، 1413هـ/1993م, ص 16.

1- الأوضاع السياسية والعسكرية:

يحكم البلاد التونسية باي ينتمي إلى عائلة إغريقية الأصل تسلمت السلطة سنة 1705م، وكان الحكم يتداول بين الذكور وبحسب كبر السن ضمن سلالة الحسن بن علي مؤسس الدولة، ورغم تبعيتها للباب العالي فإنه كان في حقيقة الأمر مستقلا يجمع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، وبإمكانه النظر في مختلف القضايا العدلية، وتعتبر كل القرارات والمراسيم التي تصدر عنه قانونا نافذ المفعول، يساعده في ذلك الوزير الذي يباشر تسيير الشؤون المالية والخارجية للإدارة بالإضافة إلى وزير الداخلية والذي يطلق عله أيضا " وزير القلم " ومستشاروه يرأسون الأقسام ,إلى جانب وزير البحرية الذي يمز إلى التقاليد العسكرية للدولة الحسينية[1].

بعد إحتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م شرعت في حد نفوذها الإقتصادي بتونس, وذلك بتقديم قروض إليها هادفة إلى السيطرة على شؤونها المالية تمهيدا للسيطرة فالاحتلال، بحيث كانت تونس حين حمل إليها خير الدين غارقة في الفوضى حيث نجد الحاكم حاكم بأمره مستبد في قراره ,وأحب الناس إليه من يجمع له المال، من حله وحرامه، ولا ضبط في دخل ولا خرج والعدل والظلم متروكان للمصادفات، حيث كان العدل قل ما يكون مؤقت يزول بزواله، ونظام القضاء والجيش والإدارة والضرائب وجباية المال وإنفاقه على النمط العتيق [2].

ومن الناحية العسكرية فقد عرفت تونس كغيرها من الولايات العثمانية نظام الجيش الإنكشاري الذي كان يتولى حماية البلاد التابعة للعثمانيين ويدعى ذلك الجيش " بالحامية " ,إذ كان يتوافد أفرادها على تونس باستمرار كلما دعت ضرورة أمن الولاية، ومع مرور الزمن تولدت من جنود الحامية أسر حاكمة تداولت السلطة بأسماء مختلفة ,لذلك فقد عرف نظام الإنكشارية تطورا مستمرا نتيجة الصراعات الحاصلة بين أفراده ورغبة كل حاكم إستمالة الفرق العسكرية إلى صفه.

عرف الجهاز العسكري تطورات هامة خلال القرن 19 م رغبة من قادة الدولة في تحسين هذا الجهاز في أواخر عهد " حمودة باشا الحسيني " (1782-1814 م)، وتوالت على يد " محمود باشا باي " (1814-1824م)، و" حسين باي " (1824-1835 م)، وأهم من غير في هذا الجهاز هو

---

[1]- علي المحجوبي، إنتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تعريب عمر بن ضو: حليمة، قرقوري، وعلي المحجوبي، د ط، سراس للنشر، تونس، 1986، ص 8.

[2]- أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، د ط، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1980,ص 151.

" أحمد باي " (1837-1855م)، الذي ادخل فرق جديدة تبعا لسياسة الاستقلالية عن الدولة العثمانية، والملاحظ أن الجهاز العسكري كان سببا في قيام العديد من الثورات لذلك كان الشغل الشاغل للبايات هو التقليل من الإعتماد المركز على العنصر التركي فقط.

ورغبة في تحقيق ما كان يصبوا إليه البايات عمد حسين باي إلى حل فرقة الإنكشارية سنة 1829م وانتدب عوضا عنهم المماليك وتخلى عن كل انتداب من الخارج، إذ بدأ بجمع الشباب من ديوان الجند المثبتين في الديوان وضم لهم عددا آخر من أبناء البلاد وجعلهم بالخصوص في فرقه المدفعية، حيث كان اغلبهم من القيروان والساحل وجعلوا مقرهم " سوسة " واستمرت المحاولات في عهد مصطفى (1835-1837 م) الذي طرح فكرة التجنيد الإجباري بعد فشل فكرة تجنيد السود، وذلك بإحصاء من في البلاد من الصغار القادرين على حمل السلاح، ثم يأخذ منهم قدر الحاجة بالقرعة مثل ما هو جاري به العمل في كل دولة [1].

وبدأ في تطبيق فكرته الإصلاحية إلا أنه اصطدم بمعارضة أهلها إذ جرت العادة على أن الجنود يجندون من أبناء الأتراك وزواوة ، أما انخراط أبناء البلد في الجيش فذلك فيه مضرة إذ يعطل العديد من الأعمال الضرورية ويزيد في كثرة الإنفاق، واجتمع المعرضون بقيادة الولي الشهير محرر بن خلف ثم خاطبوا المجلس التشريعي ليطالبوا من الباي إلغاء ما عزم عليه وفعلا تم لهم ذلك [2].

وهكذا نلاحظ أن التغيير في الجهاز العسكري كان بطيء وحذرا بسبب صعوبة التخلص من العناصر القديمة, ثم عدم إقبال لعناصر الأهلية على صفوف التجنيد وبذلك فقد كانت السياسة مبنية أساسا على إضعاف الفرق التركية وإحداث شكل آخر أقل خطرا من العناصر العسكرية الموجودة [3].

والملاحظ أن فكرة إصلاح الجيش لم تكن وليدة تونس وإنما كان الإعاز من الدولة العثمانية، حيث وجه السلطان العثماني رسالة إلى الأقاليم بضرورة إصلاح الجهاز العسكري واستجابة لطلب السلطان لجأ الباي احمد إلى الاستعانة بخبرات أجانب يتولون مهمة تحديث الجيش [4]، وهكذا زامن

---

[1]- عبد الجليل التميمي، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1882-1959م، د ط، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، زعوان، صفاقس، 1995، ص ص 47،48.

[2]- نفسه، ص 49.

[3]- نفسه.

[4]- أحمد أمين، المرجع السابق، ص ص 152،153.

محاولات إصلاح الجيش العديد من مظاهر الضعف التي أضحت بادية للعيان, إذ نجد أنه لم يعد يقوم بإنجاز المهمات المكلف بها على أكمل وجه، وفشله في السيطرة على القبائل وضمان جمع الأموال المتأتية من الضرائب، وتماديه في التخلي على واجبه سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي [1].

لا يخفى على أحد أن المؤسسة العسكرية قطاع حساس في كل دولة من الدول، إذ أن فساده يقود إلى هوان وضعف لا تداركه إلا بإصلاح الخلل وإجراء تعديلات تقي من الوقوع في المحضور، وهذا ما كان سببا في التفاف الرأي الأوروبي على الطمع في مقدرات وخيرات البلاد.

نتيجة هذه الأوضاع المتردية حاول "الباي" أحمد باشا إصلاح ما يمكن إصلاحه، ناهجا نهج محمد علي باشا في مصر فأنشأ في بارادو في فرنسا 1840م مكتب العلوم الحربية ليتعلم فيه الجنود التونسيون علوم الهندسة والمساحة والحساب وغيرها وعهد غلى خير الدين الإشراف على هذه المدرسة [2].

2- الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية:

كان الإقتصاد التونسي مبنيا بالدرجة الأولى على الفلاحة ,حيث كانت آلاتها وأساليبها بدائية، وساهم بعض الأوروبيين في الزراعة فطعموا الأشجار وبخروها ولقحوها فدارت عليهم من الأرباح ما لم ينله سكان البلاد, ثم قبض هؤلاء الأجانب على الأسواق الخارجية وخاصة في أكبر غلة بالبلاد وهي "الزيتون"، فمن ناحية أنشأوا المعاصر التي تدار بالبخار ومن ناحية أخرى وضعوا أيديهم على ما ينتجه الأهالي[3]، ومما زاد الطين بلة تنافس الشركات الإحتكارية البريطانية والإيطالية والفرنسية بوجه خاص على استغلال خيرات البلاد التونسية، وبذلك بدا الفرنسيون يستولون على الإمتيازات والأراضي بغير وجه حق[4].

نتج عن هذا الضغط الأوروبي ,أن كان التلاقي التونسي الأوروبي عنيفا ومضرا عليها إذ سرعان ما دخلت في عملية تفتت داخلي، فكان لزاما عليها الإتجاه نحو الإقتراض من السوق العالمية

---

[1]- عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص 199.

[2]- صلاح زكي احمد، إعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ط1, مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2001، ص 31.

[3]- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 150.

[4]- الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، ط2، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ص 15.

التي بدورها لم تعد عليها بالفائدة وإنما خدمت المقرضين والوسطاء ومزودي الحكومة, وقل ما كانت لصالحها، بالإضافة إلى انفتاح البلاد على المنتجات الخارجية والأفكار والتجار الأوروبيين وهذا ما زاد الأمر تعقيدا [1].

في سنة 1830م تاريخ الإحتلال الفرنسي للجزائر حدث تفكك خطير في الهياكل القبلية التقليدية لتونس، وفي أنماط العيش القديمة فتوفر لأقلية من المشايخ ومستخدمي الدولة والتجار فرصة الثراء على حساب العامة وخاصة مع تضاعف العنصر البشري [2].

نتيجة هذه الأوضاع حدث إختلال في الميزان التجاري إذ كثرت الواردات وقلت الصادرات وتغلب الفرنسيون والإيطاليون على السوق وأمسكوا بزمامه، وساعدهم في ذلك ضعف الإقتصاد المحلي نتيجة سوء أدوات النقل وفساد الطرق ,حيث كانت أغلب البضائع تنقل على الإبل والخيل والبغال ونوع من العربات البائية، ونقل القبائل غلتها في قوافل على الطريق التقليدية فإذا ما أمطرت السماء تتلف الطرق وتتعطل الحركة [3].

لجأت الدولة لكي تتدارك الأمر وإنقاذ اقتصادها المحلي إلى الاتجاه للعناصر الأهلية وذلك بفرض ضرائب وإلى الأعيان كي ساهموا بما يملكونه في تحسين وإنقاذ الإقتصاد، هذه السياسة لم تعجب العناصر المحلية وإنما دفعت بهم إلى الإبتعاد عن السلطة واللجوء إلى القنصليات الأوروبية بهدف الإحتماء من مصادرة الباي لأموالهم ,وبذلك اتسعت الهوة بين العائلة الحاكمة وأهالي البلاد، كانت ثمرتها قيام العديد من الثورات في البلاد بلغت ذروتها سنة 1864م[4].

---

[1]– محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة،ط 3، دار حمراس للنشر، 1993، ص 97.

[2]– نفسه، ص 106.

[3]– أحمد أمين، المرجع السابق، ص 150.

[4]– محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص 98.

ومن الناحية الإجتماعية فإن المجتمع التونسي كان يتركب من مزيج من العناصر البشرية المختلفة أكثرهم في العدد البربر فالعرب فالأندلوسيين فالأتراك فالزنوج فالنرمنديين حيث أدمجت هذه الأقليات فيما بينها، إلا أنها بقيت متفاوتة ومتباينة في القوة والإدراك والأخلاق [1].

كان السكان التونسيون يتوزعون بين المدينة والريف ,أما عددهم الإجمالي يوم قدوم خير الدين إلى تونس لم يتجاوز المليون ونصف مليون نسمة، يشتغل سكان المدن على الحرف والتجارة، بينما سكان الريف كانوا مزارعين وفلاحين يعيشون في عزلة تامة عما يدور خارج حدود قراهم ومزارعهم[2].

في خضم هذه الأحداث إنقسم المجتمع التونسي إلى طبقتين: طبقة بورجوازية مستسلمة وطئت النفس على الإقتناع بتفوق هؤلاء الدخلاء ,وسارت على منوالهم وأخذت طريق الثروة والمال تاركة الشعب يتخبط في أوضاع مزرية، وطبقة عريضة متبرمة، رأت أن هذا التطور الجديد هو مظهر فناء الأمة والدين وانقراض الخير وغلبة الشر ,وكان هذا هو الموقف السلبي للكثير من المنصوفين الذين وجدوا ملاذهم في مغادرة البلاد إلى الحجاز [3].

3- الأوضاع الثقافية:

يصف أحد الرحالة المنصرين الوافدين إلى تونس سنة 1835م الحالة الثقافية بها حيث يقول: إن الجهل ضارب أطنابه لدى عامة الشعب وأنه يدعوا للأسف والأسى بينما ينطبق الحال كذلك على أهل العلم منه، فالتاريخ والجغرافيا وعلم الفلك يشكل مواد غريبة عنهم تماما بدليل أنهم كانوا يقولون بشأنها أن تبعث صبيتنا على الضحك ونراهم غارقين في معتقداتهم الباطلة ويكثرهم جيوش المشعوذين والمعزمين وكتبة التمائم ومعظمهم من النساء واعتبارهم أولياء صالحين [4].

---

[1]- محمد بن الخوجة، صفحات في تاريخ تونس، تحقيق وتقديم حمادي الساحلي، الجيلالي بن الحاج يحي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1986، ص 227.

[2]- سمير أبو حمدان، ، المرجع السابق ,ص 17.

[3]- الطاهر عبد الله، المرجع السابق، ص ص 15,17

[4]- رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس سنة 1835م، ترجمة وتعليق منير الفندري، د ط، بيت الحكمة، قرطاج، 1991م, ص 137.

من بين أهم المراكز الثقافية الموجودة في تونس " جامع الزيتونة " وهو صورة مصغرة عن الأزهر في ذلك الوقت نقرأ فيه علوم الدين وتفسير وحديث وفقه وعقائد وعلوم اللغة من نحو وصف ومعاني وبيان في كتب مقررة لهم لهل متون وشح وحواشي, إذ يقضون معظم الوقت في تفهم تعبيراتهم، فالعلم شكل لا علم والنتائج جمل لا حقائق والنجاح في الإنسان الذي يستحق أن يسمى عالما، أقدرهم على الجدل وحفظ المصطلحات الشكلية، أما الجميع فسواء في عدم التحصيل، فالمناقشة الحادة كانت متركزة خصوصا في أتفه القضايا، وجزء كبير من سكان البدو لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين ولا يصل إليها العلم إلا في بعض مراكز الزوايا الصوفية [1].

يختلف الأمر عند الجاليات الأجنبية من فرنسية وإيطالية وإنجليزية كانت تعلم أبنائها في بعض المدارس مختلف المواد كاللغات والتاريخ والجغرافيا والحساب، الجبر، الهندسة، فتخرج منهم القادرين على فهم الحياة فإذا انغمسوا فيها تحولت مالية البلاد إلى أيديهم [2].

بعد توقيع معاهدة الحماية الفرنسية على تونس في 13 ماي 1881م سارعت فرنسا إلى وضع يدها على القطاعات الحساسة في البلاد ,إذ صدر في 09 يونيو أمرا يقضي بأن يسيطر المقيم العام الفرنسي على جميع الشؤون الداخلية للحكومة التونسية، ويستخلص من هذا أن السيادة التونسية أضحت شكلية فقط في يد الباي وهذا ما تأكد في سنة 1882 م بإصدار قرار إلغاء وزارتي الحربية والبحرية التونسية [3].

الشعب التونسي لم يرضخ للوجود الفرنسي في بلاده وإنما تواصلت المقاومة المسلحة إلى فيفري 1882م ,فتعددت المعارك واستبسل المقاومون إلا أن ميزان القوى كان غير متكافئ لصالح الفرنسيين مما دفع بالكثير منهم إلى الهجرة ومغادرة البلاد بعد عجزهم عن مقارعة قوة العدو، وهنا ما أدى إلى تدهور أوضاع البلاد إلى درجة الأزمة السياسية وتعرض جل محاولات التقدم والإصلاح إلى الصعوبات والتعطيل مع تصاعد الاستغلال الاقتصادي والمالي [4].

---

[1]– أحمد أمين، المرجع السابق, ص 149.

[2]– نفسه.

[3]– يونس درمون، تونس بين الحماية والإحتلال، د ط، مكتب تونس الحرة، مطبعة الرسالة، ص 69

[4]– خليفة الشاطر وآخرون، تونس عبر التاريخ، ج3، د ط، مركز الدراسات والبحوث الإقتصادية والإجتماعية، تونس،2005، ص ص 26، 27.

ترجمة سيرة ابن العنابي وخير الدين التونسي

أولا– ابن العنابي

ثانيا– خير الدين التونسي

أولا– ابن العنابي:

1– نشأته وأسرته: ولد ابن العنابي على ما يظهر في مدينة الجزائر سنة 1189هـ الموافق ل 1775م حسبما أكد ذلك بنفسه في إجازته للشيخ محمد بيرم التونسي سنة 1245هـ، إسمه الكامل محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري شهرته " العنابي " ,والظاهر أنها نسبة لأحد أجداده الذين قدموا من آسيا الصغرى إلى الجزائر في العهد العثماني، ولعل جده الحسين هو الذي أخذ التسمية أولا [1]، تربى في بيئة محافظة وعريقة [2].

ينتمي ابن العنابي إلى أسرة جزائرية عريقة، لها باع طويل في العلم والمعرفة ,حيث شغلوا وظائف رسمية في القضاء الحنفي من بينهم جدهم حسين بن محمود الذي كان عالما واسع المعرفة بالعلوم الشرعية وله تفسير للقرآن الكريم, واشتهر عالم أخر بهذه العائلة وهو مصطفى بن رمضان العنابي المتوفي سنة 1130ه[3].

2– ثقافته: ثقف ابن العنابي ثقافة واسعة بمفهوم عصره سواء منها تلك التي تمت بصلة إلى علوم الدين أوالعلوم الدنيوية, من الأوائل الذين أخذ عنهم العلم في وطنه جده، ثم والده، فالمفتي المالكي علي بن عبد القادر بن الأمين سنة 1820 م[4].

ومن أهم الأمور الأساسية التي تساعد في نبوغ الفرد وتجره في العلوم هو المنشأ الأسري الذي يتربى فيه الفرد ويتلقى فيه مبادئ الحياة، إذ أنه بمجرد أن يخرج إلى العالم الخارجي يجد نفسه محصنا بسلاح العلم والقيم التي اكتسبها في بيته الأسري، وهذا ما يساعده على الوقوف متصديا للتيارات الثقافية التي تستهدف قيمه وزاده المعرفي، وهذا يظهر جليا في شخص ابن العنابي الذي تلقى ثقافة سار عليها في بقية مشوار حياته، ناهجا نفس النهج الذي باه عليه أقربائه من العلماء.

تتصف ثقافته بأنها تقليدية إذا ما حكمنا عليها من خلال كتابه المذكور " السعي المحمود في نظام الجنود " وغيره من الآثار المكتوبة مثل فتاويه وثبته المعروف بثبت الجزائري فهو حافظ وفقيه ،

---

[1]– عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام،ج 4، ط 2014، دار الامة، 2007، ص348.

[2]– مسعود كواتي ومحمد الشريف سيدي موسى، أعلام مدينة الجزائر ومتيجة، ط2، منشورات الحضارة، الجزائر، 2010م، ص14.

[3]– عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 349، 350.

[4]– بن نعمية عبد المجيد وآخرون، موسوعة اعلام الجزائر 1830م، 1954م، د ط، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954م، 2007م، ص 264.

تلقى العلم في وطنه على يد جده وعلى والده، كما تلقاه على يد المفتي المالكي علي بن عبد القادر ابن الأمين وهؤلاء هم الذين ذكرهم في ثبته وهو يسير إلى رواة الحديث وغيرهم.

قرأ صحيح البخاري على يد جده، وجازه بفقهه وبقراءته لكتب الحديث الستة، أما عن والده فقد قرأ الفقه الحنفي وغيره من العلوم الأخرى [1].

ومن أهم مؤلفات ابن العنابي نجد إضافة إلى كتاب " السعي المحمود في نظام الجنود " صيانة الرياسة ببيان القضاء والسياسة، شرح كتاب الدرر المختار في الفقه الحنفي، كتاب في البلاغة والأدب، التحقيقات السياسة بشرح نظم العلاقات المجازية، العقد الفريد في التجويد، لمعاني البيان لبيان أخذ الآخرة عن القرآن، ثمانية عشر رسالة في وقف العقار، فتح الفيومي بجواب أسئلة الرومي، مجموع فتاوى، أشعار ونصوص أدبية وهي عبارة عن نصوص كتبها في الأدب، الثبت الجزائري حصر فيه شيوخه ومروياته، مجموعة ما أجاز به غيره، المقتطف من الحديث النبوي، المنتقى في الحدي الشريف، رسالة في المرأة عن الحجاب، خاتمة في التوحيد، شرح متن الباركوي وهو آخر عمل لم يكمله [2].

ان وصف ثقافة ابن العنابي على أنها ثقافة تقليد لمجرد تركز فكره في الجانب الديني، هو حكم في نظر كون أن الثقافة الإسلامية تحمل في طياتها كل المبادئ التي تساعد على تسهيل أمور المسلمين بما في ذلك الأخذ عن الآخرين فيما يعود بالنفع على الفرد والمجتمع, وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح هي أكبر دليل على أن الثقافة الإسلامية ثقافة متفتحة تواكب جميع العصور.

وقد عرف عن ابن العنابي مقدرته على معالجة العديد من القضايا سواء الدينية أو الإجتماعية أو السياسية أو حتى الخرافية وهذا دليل على عمق ثقافته, فهو يستدل بالعديد من الآيات والأحاديث والآثار والوقائع، أما عن عدد تلاميذه فهم كثيرون منهم الرافعي والسقاء وقد عرفنا أنه جلس للتدريس في جامع الأزهر وكانت حلقة دسه ملتقى العلماء على اختلاف مستوياتهم [3].

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي المتوفى 1850,ط2,دار الغرب الإسلامي، الجزائر ,1990,ص ص 28،29.

[2]– عمر بن قينة، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، ط2، كولوربوم، 2012، ص 29.

[3]– عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 357،358.

لقد تمكن ابن العنابي أكثر في العلوم الشرعية مع تفتح واسع على مشاكل العصر والتفاعل معها، وجاءت ثقافته من اهتمامه الشخصي بالدرجة الأولى ومن تقاليد أسرته بالدرجة الثانية[1]، التف حوله تلاميذ وعلماء من الأزهر بعد أن تصدر لتدريس الحديث والفقه فأجاز الكثير من تلاميذه في مصر وتونس وغيرهما، كما كانت له مراسلات كثيرة لكثرة مراسليه الذين يطلبون الرأي أو الفتوى أو الإجازة أو غيرها من المراسلات الإدارية، كما اتسمت شخصيته بالروح الدينية والفكر العسكري والسياسي [2].

عاصر ابن العنابي مجموعة من العلماء والأدباء منهم المفتي الشاعر " محمد بن الشاهد " ,والمفتي "مصطفى ابن الكبابطي", والعالم " ابن مالك ", والكاتب السياسي " حمدان خوجة "، ومن بين العوامل التي أثرت في فكره هي الأحداث التي عرفتها الأمة الإسلامية، حيث يعتبر من أوائل العلماء المسلمين الذين طرحوا قضية التجديد في النظم الإسلامية في أوائل القرن م19، وكان شاهدا على أحداث كبيرة جرت في المشرق والمغرب مثل الحملة الفرنسية على مصر 1789م، وحروب الدولة العثمانية في البلقان والإحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م[3].

3- وظائفه: تقلد ابن العنابي وظائف رسمية متعددة وما رشحه ذلك هو مكانة أسرته ومنزلته العلمية وخاصة وأن أسرته كانت ذات حظوة لدى دايات الجزائر، أول ما تولاه هو وظيفة القضاء الحنفي في عهد الداي أحمد باشا 1220هـ/ 1805م إلى غاية 1223 هـ/ 1808م، كما طلب منه الباشا الكتابة إلى باي تونس حمودة باشا وهذا يدل على مكانته وقيمته العلمية، غاب عن الوظائف الرسمية لفترة ليظهر في عهد الداي عمر باشا سنة (1230هـ، 1232هـ) الموافق ل (1814م، 1816م)، إذ وجد إسمه ضمن قائمة وزراء وأعيان الباشا متقلدا وظيفة نقيب أوقاف مكة والمدينة واضعا أمام ذلك ختمه الذي يحمل تاريخه (1232هـ)، حيث كلفه عمر باشا بالسفارة للمغرب الأقصى لدى السلطان المولى سليمان [4].

---

[1]- بن نعمية عبد المجيد وآخرون، المرجع السابق، ص 265.

[2]- نفسه، ص 266.

[3]- مسعود كواتي ومحمد الشريف سيدي موسى، المرجع السابق، ص 14.

[4]- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ص 352.

سافر إلى مصر وتولى وظيفة الإفتاء والخطابة والأوقاف، قام بعدة سفارات نحو المغرب واسطنبول [1]، وتشير بعض الكتابات إلى أن ابن العنابي كان دبلوماسيا ناجحا حيث كلفه أحمد باشا بالكتابة لباي تونس، كما كلفه عمر باشا بالسفارة إلى المغرب للإستعانة بالأشقاء المغربيين بعد المواجهة بين الأسطول الجزائري والأسطول الإنجليزي سنة 1816م، ومما يحسب له انه مارس وظيفته الدينية باقتصار في القضاء الحنفي والإمامة والرأي والذي جر عليه متاعب فترك الجزائر وتوجه نحو البلاد العربية كمصر والسعودية، حيث قضى تسع سنوات خارج الجزائر من (1235هـ، 1244هـ) الموافق ل (1820م، 1892م) حاجا وأستاذا وإماما، كما أقام في مصر معززا مكرما فأحا ط به العلماء بمصر وتعززت علاقاته أكثر بعد طرده من طرف فرنسا [2].

بعد دخول فرنسا إلى الجزائر قام الجنرال كلوزيل بحياكة مؤامرة ضد ابن العنابي حيث قاموا بسجنه ثم نفيه خلال مدة قصيرة نتيجة الانتقادات التي قدمها ضد السلطات الفرنسية ومنها رفضه طلب كلوزيل بأن يسلمه ابن العنابي مفاتيح بعض المساجد في المدينة وتحويلها إلى مستشفيات لمدة شهرين فقط، إلا انه رفض كما كان شديد الانتقاد لخرق بنود الاتفاقية الموقعة بين ديبورمون والداي حسين حيث ذاق كلوزيل ذرعا بمعارضته الشديدة مما دفعه إلى القبض عليه وإدخاله السجن [3].

ثانيا– خير الدين التونسي:

1– نشأته: ولد سنة (1225هـ–1308هـ) الموافق ل (1810 هـ–1890م)[4] نشأ خير الدين في بيئة قاسية في قرية متواضعة معلقة على سفح جبل من جبال القوقاز تغطيها الأشجار الملتفة ولا يصل غليها المرء إلا عبر شعاب وعرة، ومنذ أن تعلم العدو وتعوده على القفز في الغابة لاستخراج العصافير الكامنة في الأغصان المرشوشة بالثلوج أو للتأمل في مناظر السلالات الهادرة المشحونة بالرغوة والمنحدرة من المرتفعات المنبعية الغربية، وكعادته في أحد الجولات في الغابة حدثت خصومة بين فريقين متنافسين من الأطفال فهلّ الصبي خير الدين بقساوة عن اقرأنه إذ إختطفته عصابة مسلحة من

---

[1]– مسعود كواتي ومحمد الشريف سيدي موسى، المرجع السابق، ص 14.

[2]– عمر بن قينة، أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، د ط، إتحاد كتاب العرب، دمشق، 2000م، ص 24.

[3]– عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ص 355..

[4]– خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تاجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمقربين والمستشرفين، ج2، ط 15، دا العلم للملايين، بيروت، ماي 2002، ص 328..

الفرسان وبعد رحلة شاقة فبي الأرياف في شمال الأناضول وصل خير الدين إلى اسطنبول وبيع إلى أحد أشراف الأتراك [1]، والمدعو تحسين بيك الذي اشتراه في سوق العبيد [2].

من مكونات الشخصية القوية في طبيعة البيئة التي يتربى فيها الفرد، إذ أن قساوة البيئة تساهم في تكوين شخصية صلبة من أجل مقارعة مختلف الوقائع والأحداث المستعصية، وهذا ما توف في شخص خير الدين الذي كان له نصيب من تلقي دروس الطبيعة.

تذكر بعض الدراسات أن أصل خير الدين "شركسي" من أسرة إباضة حيث كان يحمل نفس الطباع التي كان يحملها أفراد قبيلته من شجاعة وكرم ونظافة وجمال، لذلك فإن الصغار والفتيان يختطفون ويباعون في سوق العبيد [3].

اختار تحسين بك خير الدين ليكون رفيقا لابنه في الدراسة حيث كان ابن تحسين بك في نفس سن خير الدين حيث أخذ الطفلان يتعاطفان مع بعضهما، زيادة إلى الرفقة الحسنة من طرف تحسين بك، إذ كان يصاحبهما خارج أوقات الدراسة إلى أي مكان يريدان الذهاب إليه، ومع مرور الزمن مرض ابن تحسين بك نتيجة مرض عضال الذي أدى إلى وفاته, وهذا ما أحزن الأب حزنا شديدا بحيث أصبح لا يطيق رؤية رفيق ابنه لأنه يذكره به فقرر وهو مفتت القلب إلى التفويت فيه لأحد أعيان تونس الذي اشتراه لإهدائه عند رجوعه إلى تونس وبالضبط إلى ملك البلاد آن ذاك "المشير أمحمد باي الأول"[4].

وصل إلى قصر حاكم تونس الباي أحمد باشا سنة 1836 م[5]، بعد أن قطع رحلة بحرية شاقة من اسطنبول إلى تونس [6].

2- ثقافته: بمجرد وصوله إلى تونس وتسليمه إلى الباي ألحق مباشرة بمدرسة صغار المماليك ,وبعد ما تعلم اللغة العربية وأتقن معارفه الدينية، إنخرط في سلك الضباط الحديثة العهد، فأظهر من آيات

---

[1]- الصادق الزمرلي، أعلام تونسيون، تقديم وتعريب حمادي الساحلي،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 98.

[2]- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 142.

[3]- نفسه، ص ص 144، 148.

[4]- الصادق الزمرلي، المرجع السابق، ص 98.

[5]- صلاح احمد زكي، المرجع السابق، ص 31.

[6]- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 142.

الذكاء والإجتهاد والموهبة ومن علامات التقدم في مدارج العرفان هذا ما أثار اندهاش أساتذته وإعجاب الباي الذي تأثر بمحياه الطلق ومظهره الأبي وقدرته على الإستيعاب حتى صار يتابع من كثب خطى ذلك التلميذ النابه [1]

أهم ما ميز ثقافة خير الدين التونسي هي تنوع اللغات التي يتقنها من لغة فرنسية، تركية وعربية، إضافة الى تعدد منابع ثقافته سواء في المجال الديني أو المجال السياسي والإجتماعي والإقتصادي إنطلاقا من نظرته الواقعية لما تعيشه الدول الأروبية وخاصة وأنه سافر إلى بلطات دول أوروبية متعددة منها ألمانيا، فرنسا، انجلترا، إيطاليا، النمسا، السويد، هولندا، الدنمارك، بلجيكا، فكتب في مذكراته ما شاهده واستنتجه من أسباب تقدم العمران الأوروبي والأساليب الواجب إتباعها من أجل إخراج الأمة العربية من سباتها.

إنتهز فرصة اعتزاله الحياة السياسية ووضع مؤلفه " **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**" كخلاصة لمشاهداته الواقعية[2]، حيث نجد أن خير الدين التونسي اعتزل على نهج ابن خلدون من قبل في إحدى قلاع تونس فكتب مقدمته، كذلك الحال بالنسبة لخير الدين التونسي الذي ذكر في مقدمته خلاصة آرائه في التمدن والإصلاح تماما مثلما فعل ابن خلدون في مقدمته وكان عمره آنذاك لا يتجاوز 45 عاما.

أعجب الكثير من الشخصيات العربية بهذا المنتوج الفكري ,وكان على رأسهم السلطان عبد الحميد الثاني الذي قرأ كتابه واقتنع بما فيه من أفكار إصلاحية هذا ما دفع به إلى تعينه صدرا أعظما في الأستانة عام 1878م...[3].

ظهر في منتوج فكر خير الدين التونسي مزيج جمع بين الثقافة المكتسبة والتجربة الميدانية التي عايشها بنفسه مع مستجدات الواقع المعاش ليظهر هذا المنتوج في صميم الأمر، وهذا ماكان له أثر طيب في الصدى والرواج الذي عرفه مؤلفه.

---

[1]– الصادق الزمرلي، المرجع السابق، ص 98.

[2]– نازك سابايارد، الرحالة العرب وحضارة الغرب، ط2، النهضة العربية الحديثة ,نوفل، 1992، ص20.

[3]– صلاح أحمد زكي، المرجع السابق، ص ص 30،31.

3-**وظائفه:** بعد أن أنهى خير الدين التونسي تعليمه قرر الباي "أحمد المشير" إلحاقه بحاشية الخاصة دون أن يفصله عن سلك الجيش إلى أن ترق في صفوفه وصار أميرا ثم أمير لواء الخيالة ثم تدرج في الترقي بالميدان العسكري ,لما كان يتميز به من مؤهلات الرجل المدبر المتبصر، ثم وجد نفسه مضطرا للتخلي عن سلك الجيش إلى الأبد والاضطلاع بمهام سياسية أو وظائف إدارية ستضفي على حياته العديد من الصعوبات الغير متوقعة.

كلف من طرف أحمد باي الأول ""1853-1854م" بمهمة متمثلة في الدفاع لدى السلطات الفرنسية عن مصالح الدولة التونسية هناك التي رفعت قضية ضد المتصرف السابق في ماليتها اللواء محمود بن عياد فقد نجح خير الدين نجاحا باهرا في مهمته إذ يفضل حجته الدامغة تمكن من استرداد جزءا لا يستهان به من الأموال التي سلبت منها...[1] يقضي أربع سنوات في باريس ويعد عودته إلى تونس عين وزيرا للبحرية وقضى 6 سنوات في صميم حركة الإصلاح الدستوري حيث كان عضوا في اللجنة التي وضعت دستور 1860 م ورئيس مجلس الشورى مع الاحتفاظ بمنصبه كوزير...[2].

بعد وفاة المشير أحمد باي الأول سنة 1855م، أبى ابن عمه الملك الجديد محمد باي إلاّ أن يعرب عن رضاه لخادمة البارع فعينه وزيرا للبحرية وبعد ذلك أصبح رئيسا للمجلس الأكبر الإستشاري المحدث منذ عهد قريب، ويفضل خصاله نال تقدير وإعجاب أغلبية أعضاء المجلس من جهة والنخبة المثقفة من جهة أخرى التي كانت تتابع مداخلته المتسمة بالكفاءة والشجاعة...[3].

إن بقاء خير الدين على رأس وظائف الدولة بالرغم من تغير موازين المعادلات السياسية فهو خير دليل على الحنكة السياسية التي كان يتمتع بها، والتي ساعدته للوقوف أمام خصومه السياسيين.

وبالرغم من الجهود المبذولة طيلة خمس سنوات إلاّ أنه لم يجني ثمار جهده بسبب معارضيه من رجال البلاط والوزير الأكبر القومي النفوذ مصطفى خزندار ,الذي نجح تحت غطاء قرارات المجلس لتبرير أعمالهم الدنيئة أخطائهم الأثيمة ,مما دفع خير الدين إلى الإستقالة من منصب الوزير ورئيس المجلس والتخلي عن كل نشاط عمومي في جوان 1863م، في فترة إبتعاد خير الدين عن الساحة السياسية قام بعدة مهمات بالخارج, فزار عددا من البلدان الأوروبية واستغل تلك الفرصة لدراسة أسس حضارة الغرب ومؤسساتها المختلفة، كما كلف من طرف الأمير الصادق باي بالدفاع لدى

---

[1]- الصادق الزمرلي ، المرجع السابق: ص 99.

[2]- ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1934م)، دط، ترجمة عزقول عزقول، دار النهار للنشر، ش.م.ل، بيروت لبنان، ص ص 110، 111.

[3]- الصادق الزمرلي، المرجع السابق، ص 99.

الباب العالي عن ضبط فكرة نظام أساسي مبني على قواعد ركيزة للعلاقات القائمة بين الدولة العثمانية وولاتها في إفريقيا...[1].

في سنة 1869 م أصبح رئيسا للفرع التنفيذي وهي لجنة دولية لإدارة الواردات وفي سنة 1871م بعث مجددا إلى اسطنبول حيث نجحت مهمته بعد إخفاق مهمتين قبله...[2]. أصبح خير الدين رئيسا للوزراء سنة 1873م بقى فيه فيه أربع سنوات حيث سعى لإجراء وإصلاحات إلاّ أن مطامع الدول الأوروبية وتنافسها ورغبة الباي في الاحتفاظ بسلطته كان عائقا له ,فلجا إلى انتهاج سياسة التوازن في المصالح وبقيام (الحرب الروسية التركية)طلبت بريطانيا وقوف تونس إلى جانب السلطات العثماني وهذا ما كانت تفرضه دول أخرى مثل فرنسا وبريطانيا، إنتهى بميله إلى الطلب البريطاني وبذلك خسر الدعم الأجنبي وأصبح عاجزا عن الوقوف في وجه الباي الذي تقم عليه لسعيه الحد من السلطة الملكية بعد طرده من طرف الحاكم التونسي عاش في اسطنبول إلى أن وافته المنية سنة 1899م...[3].

[1]- الصادق الزمرلي, المرجع السابق، ص ص 99،.100 .

[2]- آليرت حوراني، المرجع السابق، ص111.

[3]- نفسه، ص 113.

المبحث الثالث

الفكر الإصلاحي لابن العنابي

في المجال السياسي والعسكري

أولا– المجال السياسي.

ثانيا– المجال العسكري.

أولا– في المجال السياسي.

يعتبر ابن العنابي من المفكرين المصلحين ن في العصر الحديث ,حيث كانت له رؤية واضحة المعالم حول مشروع الإصلاح[1] والحداثة[2] للخروج بالعالم الاسلامي من واقعه المتردي ومسايرة ما توصلت إليه الأمم الأوروبية في شتى الميادين، إذ نجد أنه لخص عصارة فكره في كتابه(السعي المحمود في نظام الجنود) الذي ألفه سنة 1826م الموافق 1242 هـ، حيث كان يدعوا فيه إلى الأخذ بأسباب القوة المادية والقانونية من الغرب.

ألف كتابه في مصر وبعد نفيه من الجزائر سنة 1831م الموافق ل 1247 هـ ,أعجب محمد علي باشا برؤية الرجل الإصلاحية وفكره الإسلامي الثاني ومواقفه الصلبة وصدقه في القول والفعل، كما أعجب بموضوع الكتاب ومنهجه وأمر بتدريسه وتلخيصه فهو كتاب في سياسة الرعية ونظام الدولة وإعداد الجيش الإسلامي إعداد قويا لحماية الأوطان من الأخطار الخارجية والاستفادة من النظم الغربية نفسها في إعداد الجيوش وتدريبها وتسليمها مع القوانين المضبوطة فضلا عن العمل بما يأمر به الشرع من عدل وإصلاح تمكينا للقيم الأصلية في حضارتنا الاسلامية انطلاقا من النص القرآني والسنة النبوية مستدلا في ذلك يقول الله عز وجل**قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[3].

---

[1]– الإصلاح: تختلف التعريفات إلاّ أنه يقصد به أنه ذلك التأثير من الغرب الذي أتى غالبا بتأثير الفكر الإصلاحي الأوروبي الذي كان يهدف للتخلص من حالة التخلف ومن ثم الوصول إلى حالة تشبه حالة أوروبا من حيث العلوم والتنظيم والإجتماع ولذلك فقد كانت أوروبا هي الهدف المنشود، للمزيد انظر محمد كامل الخطيب، الإصلاح والنهضة، ج1، دط، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1992، ص21.

[2]– الحداثة: تختلف التعاريف حيث نجد أن طه حسين عرفها بأنها مشروطة بأمرين الأول أنها في كثير من ميادين الحياة تلتمس عند الأروبيين والثاني أن الدولة وحدها هي التي تستطيع تطبيق ما يتم اقتباسه من منجزات الأوروبيين حيث كان معنى الحداثة مرادف لبناء الدولة للمزيد أفضل أحسن بشاني، خطاب الحداثة في الفكر الفلسفي العربي المعاصر وإشكالية الخصوصية والعالمية، أطروحة لنيل شهادة دكتوره دولة في الفلسفة، 2005، 2006، جامعة الجزائر، ص 220.

[3]– سورة الأنفال، الآية 60.

حيث يتبع ابن العنابي الإستشهاد بهذه الآية مؤكدا بأنها من أبدع جوامع كلم القرآن وأظهرها إعجاز ولفظا ومعنا لاختصاصها جميع الأدوات والأسباب الحسية والمعنوية المؤدية للقوة...[1].

حيث نجد أن ابن العنابي استمد رؤيته الإصلاحية من قيم الحضارة العربية الاسلامية بخلفية دينية واضحة سعيا للإصلاح وتمكينا للحس السياسي المسؤول ,وتأصيلا للتقاليد الإسلامية في الأخوة والمحبة والتآزر والعدول والإنصاف والعمل والإخلاص فيه ومكافأة الجادين من أهل العلم والفضل من دون إيثار لغير الكفاءة والإخلاص...[2].

خصص ابن العنابي كتابه السعي المحمود في نظام الجنود لدراسة شقين أساسيين، القسم الأول من كتابه خصصه للشق العسكري والقسم الثاني خصصه للشق السياسي معرفا السياسة بأنها مصدر ساس الرعية يسوسها إذن أمر فيها ونهي فهي بناءا على هذا التعريف سلطة الحكم وملوك الحاكم وتطلق السياسة على حسن التدبير وجودة الرأي، ونقل عن بعضهم تعريفا آخر السياسة يحصرها في القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال...[3].

أما عن مصادر الأسس والمبادئ التي تقوم عليها السياسة فإنه يؤكد على أن السياسة العقلية لغير المسلمين لا يحتاجها المسلمون إذ يقول (... الكفرة من سياستهم العقلية فنحن في غنى عنه) لأن الكتابة والسنة وما فيهما من تشريعاته سماوية فيها ما يغني عن القوانين الأوروبية الوضعية ,وهنا يخطوا نفس خطى حمدان خوجة في فكرة السياسي موضحا بأن مبنى السياسة الشرعية ثلاثة أمور هي:

- اللين وترك القضاضة: أو بعبارة أخرى تبصر الحاكم ومرونته وقدرته على خفض الجناح وكبح الغضب.
- المشورة: أو بتعبيرنا اليوم ديمقراطية الحكم وعدم الإستبداد بالرأي والتصرف

[1]- عمر بن قينة، صوت...، المرجع السابق، ص 25 26.

[2]- نفسه، ص27.

[3]- أبو القاسم سعد الله، رائد....، المرجع السابق، ص -ص 74، 75، 76.

– عدم استعمال الولاة والإطارات إذا كانوا راغبين في الولاية أو الوظيفة، ثم انتقل ليؤكد على أن الحاكم ما هو إلاّ فرد من أفراد الأمة وأنه يتوجب عليه المشورة لأن رأيه الفردي لا يستطيع أن ينفذ إلى كل الأغوار ولا يحيط بكل شيء...[1].

من أجل التخلص من قضية الاستبداد بالرأي أكد ابن العنابي على أنه يتوجب شرعا على أن تكون هنالك مجالس إستشارية مكونة من العلماء وأصحابه الرأي في الأمة هذه المجالس تشارك الحاكم في اتخاذ القرارات مستشهدا بذلك بنصوص من الكتاب والسنة التي تدعوا إلى ذلك، أما فيما يخص الولاة فإنه أكد على أن الولايات أمانات ومن يطلب الأمانة دليل على الخيانة لأنه من يدرك مسؤولية وأهمية الأمانة لا يطلبها.

ربط المؤلف العديد من الأمور التي تعتبر من صميم نجاح الحكم وقوته ومنها العدل بالدرجة الأولى لأن الظلم مصدر خراب الدول وبين أهمية وفرة المال وحرمة العلماء وانتشار العمران مؤكدا على الأهمية الكبيرة للعلماء والجيش في الدولة، محذرا من مغبة التبذير والإسراف في صرف أموال الامة وجمعها بطريقة الإكراه وأخذها ممن يعجز عن دفعها...[2].

من الأمور الأساسية في قيام الدول والنهوض بها الإهتمام بالعلماء لأن العلماء هم أعلم هذه الأمة وأكثرهم فهما ووعيا بفضل الله ونعمته لإطلاعهم على دقائق الأمور وآثار الكون من خلال البحث والنظر, وهكذا نستطيع أن تقول أن هذه القضية من القضايا الأساسية التي يتوجب الإهتمام بها، والعلم هنا لا يقصد به فقط العلم بالكتاب والسنة وإنما العلم بما أشار إليه الكتابة والسنة من هذا الكون الفسيح الواسع في العلوم التطبيقية وفي التجربة الإنسانية عامة.

يقول الله عزوجل: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾[3] هذا النظر الواسع في الكون وهذا البحث الإستنطاقي للتجربة البشرية مطلوب بشدة في هذه المرحلة التاريخية من حياة الأمة وتقدمها في شتى الميادين من أجل مواكبة الركب الحضاري الأوروبي وما توصل إليه من علوم وتقدم وخاصة في المجال العسكري...[4].

---

[1]– أبو القاسم سعد الله رائد...، المرجع السابق ,ص77.

[2]–نفسه ،

[3]– سورة الأنعام، الآية 11.

[4]– جاسم سلطان، النهضة... من الصحوة إلى اليقظة،دط ,سلسلة أدواته القادة، ص ص 58، 59.

لقد أكد ابن العنابي بأن الأمة الإسلامية يجب عليها أن لا تكتفي بمعرفة العلوم اللغوية والمعارف الدينية فقط بل يتوجب عليها دراسة كل العلوم المؤدية للنهضة والتقدم ,لأن هذا العصر هو عصر العلوم الطبيعية والرياضية التي تعتبر أسس الصناعة والزراعة والتجارة والإكتشافات مؤكدا على ضرورة الإقتداء بالأوروبيين في هذا المجال، هذا الإقتداء يكون مشروطا بمعنى أن الأمة الإسلامية لا تحتاج إلى الأخذ بكل ما جاءت به الحضارة الأوروبية لأن التمادي في التقليد الأعمى والاستمرار على هذا النهج يقتل أخلاق المسلمين وعاداتهم وبذلك لا تستفيد شيئا من هذه النقلة...[1].

ومما يذكره ابن العنابي نقلا عن آخرين أن الملك بناء والجند أساسه فإذا قوى الأساس دام البناء وإذا ضعفه الأساس إنهار البناء فلا سلطان إلا بالجند ولا جند إلا بالمال ولا مال إلاّ بجباية ولا جباية إلا بعمارة ولا عمارة إلا بعدل فصار العدل أساسا للسائر الأساسات, حيث يوضح بعض مظاهر عدل الحكام ومنها أنه يفرب منه حملة العلم الذين هم حفاضه ورعاته وفقهائه وهم الأدلاء على الله والقائمون بأمره والحافظون لحدوده والناصحون لعباده, وعلى الحاكم كذلك أن يتفقد جيشه باستمرار وبتعهده لأن الجيش أساس الملك وهو حامي الدين والحريم أما المال فهو قوة السلطان وعمارة المملكة.

وعلى الحاكم أن يأخذ من الرعية إلا ما فضل عن مصالحها ومعاشها وأن ينفقه فيما يعود بالفائدة على الرعية كمد الطرق ورفع الجسور وإقامة الثغور ,وقد قارن بين السياسة المالية للصينيين والفرس والعرب ووجد أن أولئك يدخرون الأموال لوقت الحاجة أما هؤلاء فينفقونها فيما ينفع الرعية ويوسع عليها لأن الرعية هي الجند وعلى ذلك السيرة النبوية...[2].

هذه الأفكار التي طرحها ابن العنابي كانت وليدة الظروف الراهنة ,حيث شاهد إستبداد الدايات في الجزائر وإرهاقهم للرعية بجباية الأموال قصرا واستعمالهم للطالبين للعمل والولاية والمتآمرين من أجله مع الطائفة اليهودية (أسرة بكري بوشناق)...[3].

---

[1]– علي الحافظة، الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة من 1798 م إلى 1914م، الإتجاهات الدينية والسياسية والإجتماعية والعلمية, دط، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1987، ص ص 163–203.

[2]– أبو القاسم سعد الله، رائد...، المرجع السابق، ص ص، 77، 78.

[3]–علي الحافظة ,المرجع السابق,ص 78.

وكذلك موقفه الذي كان منافيا لشروط التسليم وضد مبادئ الأمة الفرنسية ,حيث كتب سلسلة من الرسائل إلى الجنرال كلوزيل ينبهه فيها إلى العواقب التي قد تنجر عن السياسة الفرنسية المتبعة آنذاك...[1].

يشيد ابن العنابي بنظام سياسي يعم فيه العدل وينتفي فيه الظلم ويشيع حكم الأمن الإجتماعي والأمان الإنساني مؤكدا كذلك على ضرورة إجتماع الكلمة والإتفاق فلا قوة لنظام إلاّ في حضور إجتماع الكلمة...[2].

وفي ختام حوصلته لأهم الأفكار السياسة الإصلاحية فإنه لخصها في خاتمة كتابة التي جعلها في أمور شتى من أسباب النصر والقوة حصرها في معنى الآية الكريمة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[3]، وهناك أربعة شروط تشترط في الحكام لكي يرضى الله عنهم ثم العباد وهي:

- إقامة العدل، إظهار شعائر الدين.
- نصر المظلوم والأخذ على يد الظالم وكف يد القوي من الضعيف.
- مراعاة الفقراء والمساكين وملاحظة ذوي الخصاصة والمستضعفين.

فإذا أخلوا بشيء من هذه الشروط الأربعة تضعضعت قواعدهم وانتفض عليهم من أطراف ممالكهم وانتصر عليهم عدوهم واضطربت عليهم الأمور وظهرت عليهم الفتنة وحاسد النعمة...[4]. إن ابن العنابي لم يشر إلى نظام سياسي معين وإنما وضع مبادئ وأسس يقوم عليها النظام الناجح الذي يضمن بقاءه لفترة أطول مع الحفاظ على مصالح الرعية.

إن أهم نقطة ركز عليها ابن العنابي هو رفضه الإستبداد بالرأي والحكم المطلق الذي كان سمة من سمات الواقع الإسلامي في عصره حيث اشتد فيه الظلم والطغيان وقد طالب بهذا المبدأ ليكون قاعدة في الحكم كما كان معمولا به في عهد السلف الصالح، حيث كانت تصرفات الحاكم التشريعية

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، محاضرات،...، المرجع السابق، ص 74.

[2]-عمر بن قينة، صوت...، المرجع السابق، ص 26.

[3]- سورة الحج، الآية 40.

[4]- أبو القاسم سعد الله، رائد...، المرجع السابق، ص 79.

والسياسية تخضع لرأي الجماعة لا هواه، ذلك أن التشريع الإجتهادي فيما أجازت فيه الشريعة والإجتهاد هم من أهل الرأي والاختصاص والخبرة، إذ من حقه وقف تسلط الحاكم وما ينجر عنه من فساد وعليه فهو ليس مشرعا وإنما هو منفذ لشريعة إلهية، وفي رأيه أن العلماء هم حملة الشريعة وهم الذين يقومون بإلزامه التقيد بقواعد التشريع الذي الذي جاء به الإسلام، إلاّ أن ابن العنابي لم يشر إلى طريقة إجراءها وإنما حدد أهلها فقط...[1].

ربما يعود هذا إلى كون إستشارة تخص من له العلم في موضوعها لأنها صورة من صور الإجتهاد كما أنها فرض كفاية، ولم يتعرض إلى مسألة حجية رأي أهل الشورى وأغلبيتهم في الحاكم لعصره تميز بتضارب آراء الفقهاء حول العديد من المسائل المليئة بالصراعات.

يرى ابن العنابي أن الشورى هي حق للمسلمين في كل ما يتعلق بأمور دينهم ودنياهم بمقتضى حكم الشرع، ذلك أن الناس إئتمنوه على أنفسهم وأموالهم ودينهم وديارهم واختاروه لإدارة أمورهم ثم بايعوه على الطاعة مقابل تعهده بإقامة العدل وتنفيذ الشريعة والسير عليها ولهم الحق في مسائلة ومناقشة كل ما يتعلق بمصيرهم، كما يحمل فكرة تقسيم السلطات معبرا عنها بالقاموس الإسلامي حيث لخص وظائف الدولة وحدد مسؤولية الحاكم المباشرة أو من يتوجه عنه في الاضطلاع بمهام ذات صلة بسير شؤون الأمة من وزراء وعمال وقضاة كل في دائر تخصصه...[2].

وخلاصة القول أن المجتمع القوي لا يمكن بنائه في نظر ابن العنابي إلاّ بصلاح الحياة الإنسانية وانتظام شؤونها, وهذا بدوره لم يتأتى إلاّ على أساس جملة من الأركان دين متبع يصرف النفوس عن شهواتها، زاجرا للضمائر، رقيبا على النفوس، ثم سلطان وجوده ضروري لانتظام العمران وظيفته حماية الأمة والوطن من أعدائها وعمارة البلاد والتصرف في الأموال العامة على مقتضى السنة المشروعة والقضاء على المظالم وعدل تعمر به البلاد وتنمي به الأموال وحينها يأمن السلطان...[3].

---

[1]–فريد حاجي، عرض لنظرة ابن العنابي وخير الدين التونسي للإصلاح المسعى والمال، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، السنة الدراسية 2000–2001، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية بوزريعة، ص ص 27،28.

[2]– فريد حاجي,المرجع السابق , ص ص 28،29.

[3]– نفسه، ص 29.

ثانيا– في المجال العسكري:

يعد الجهاد الفرض الذي يتم به الدفاع عن الدين والوطن، وبه يصان الإستقلال وتحفظ الكرامة وتؤمن الحرية، كما أنه السبيل إلى مجاهدة الظلم، وهو فرض كفاية عند جمهرة المسلمين، إلاّ في حالة اعتداء على أرض الإسلام حيث يصبح فرض عين، ولما كان من أهداف الإسلام ودولته تحرير البشر من الاستبعاد والظلم وإقامة العدل بينهم فإن هذه الأهداف لن تتحقق إلاّ في ظل دولة قوية تملك جيشا قويا يقوم بتأمين الأمن الداخلي، والدفاع الخارجي، أي حماية البيضة والذب عن الحوزة ليتصرف الناس في المعايش وينتشر في الأسفار آمنين...[1].

لا يخفى على أحد أن البلاد الإسلامية في الفترة التي عاصرها ابن العنابي تميزت بالضعف وتفوق الأمم الأوروبية عليها، وبذلك أصبحت تشكل خطرا عليها وعلى دينها، لذا تحركت أقلام بعض المفكرين لتدارك الوضع قبل فوات الأوان، وكان أهم ما ركزوا عليه هو إصلاح الجيش وإقامة جيش عسكري حديث يتلاءم وروح العصر، وهذا ما ذهب إليه ابن العنابي، حيث يرى الأوروبيين نظموا جندهم ليضرو بالإسلام وأهله، وأمام هذا الخطر الداهم أصبح من المحتم على المسلمين، أن يتعلموا منهم ما اخترعواه من صنائع ونظم[2].

إن تعلم المسلمين مخترعاتهم وصنائع ونظم الأوروبيين فيه مصلحة عليا للدين والأمة الإسلامية حيث يقول:» لما حدث في هذه الأعصار الآخرة تطاول طغاة الأمم الكافرة بترتيب أجنادهم على طريقة محكمة إبتدعوها وتدريبهم على فنون وحبل اخترعوها. كان القصد من كل ذلك المكيدة للإسلام وأهله وسعيا في استباحة حماة وتمزيق شمله: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١٢٠﴾

ومن ثم فقد عظم الخطب ودعت ضرورة الحال إلى استعلام ذلك من قبلهم والتدرب على ما ألقفوا من صنائعهم وحيلهم مشيرا إلى أن الدولة العثمانية أخذت بهذا النظام ,كما لمح إلى أن هذا النظام لم يكن مقبولا لدى الجميع وأن هناك معارضة له من بعض رجال الدين وبعض المتمسكين بالنظام

---

[1]–فريد حاجي،المرجع السابق, ص 20.

[2]– أبو القاسم سعد الله، رائد...، المرجع السابق، ص 60.

القديم وحتى بعض المتزمتين من شرائح المجتمع الأخرى فقد قال في هذا المعنى «فرتبت العساكر الإسلامية على نحو من ذلك نظاما جديدا وصدر به من جانب السلطة العليا أدام الله تأييدها وضيقت ملابس الجند وفننت ألوانها وقصرت فاشكره ذلك أناس...[1]

عايش ابن العنابي وسمع عن إنتصارات الأوروبيين على الإنكشارية ,وعاش في زمن شهد الحروب النابليونية, ومؤتمر فيينا وهذا ما كان له دعوة إلى تجديد الجيوش الإسلامية والإستعداد للجهاد الحق على غرار ما كان عليه الجهاد زمن الانتصارات الباهرة، كما يشير إلى أن ما جاء به الأوروبيون من جديد في نظام الجيش تتلازم فيه الفكرة العسكرية والسياسية للارتباط الوثيق بينهما لأنه لا جيش بدون حكم ولا حكم بدون جيش «اعلم أولا أنه قد عرف أن ترتيب نظام الجند الذي ابتدعه الكفرة يحصر أمران أحدهما في الأمور الحربية والثاني في الأمور السياسية»...[2].

خصص ابن العنابي القسم الأول من الكتاب بالمجال العسكري حيث قسمه إلى ستة عشر فصلا، حيث عرف الأمور الحربية بأنا كل قوة مادية أو معنوية لردع الأعداء والحط من شأنهم ,واعتبر كل ذلك أمرا شرعيا ومما جاء في كلامه في هذا المعنى قوله: نعني به كل ما أنتج قوة محسوسة أو معقولة على نية دفاع الأعداء...[3] وإرهابهم، واغاضة نفوسهم، واتباعهم، فكل هذه المعاني أمور شرعية، لأن فيها إذلال الكفر، وعزة الإسلام وعلو كلمته، وأنه المقصود الأعظم من شرعية الجهاد، فكل ما يفيد منفعة، لها تعلق بإعزاز الدين ورفعة شأنه مما اشتمل عليه النظام المستجد للكفرة، مما تدعوا إليه الحاجة فهو أمر مشروع، بالنظر إلى أصله لما ذكرناه ولاندراجه في عموم قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾الآية سابقة الذكر.

ثم راح يشرح الآية شرحا اضافيا جاعلا من أداة العموم " ما" وأداة التخصيص «من» فضاءا واسعا يشمل كل ما فيه قوة، أو سبب قوة محسوسة أو معقولة، فنحن مطالبون بتحصيلها شرعا، وإعدادها بإرهاب الأعداء وهو لم يكتفي بذكر كلمة النظام المستجد للنصارى وحدها، بل راح يذكر ما جل وقل من مكونات هذا النظام إجمالا: «من ترتيب العساكر وتصنيفهم وحصر أعدادهم وتعديد

---

[1]–أبو القاسم سعد الله، الرائد...،المرجع السابق، ص 61.

[2]– نفسه،ص ص 61,62

[3]– أبو القاسم سعد الله،المرجع السابق ص 64.

قوادهم وعرفائهم وتسويم أصنافهم وكبائرهم بخصوص لباس أو علامة وتضييق ملابسهم وتقصيرها وتعيين مواقعهم وعملهم، وتخصيص كل فريق براية أو لواء ثم تدريبهم على عمل الحرب...[1].

هذا فيما يخص الفصل الأول من قسمه الأول، أما الفصل الثاني فهو يعرف ترتيب الجند بقوله: نعني به تنزيل كل منهم، في خصوص مرتبه تليق به بحسب ماله من خصال الحرب، ومعارفه مستدلا بذلك بقوله تعالى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾[2]، وهذا هو معنى الجدارة والاستحقاق...[3].

وانطلاقا من ذلك فإن ابن العنابي يرى بأن التفضيل هنا بحسب الكفاءة لا بحسب المال أو الجاه وأنه من ولي أمر المسلمين وفضل أحدهم محاباة فإن عليه لعنة الله ولا يقبل الله منه لا صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم، هذا في معنى الرسول صل الله عليه وسلم، أما الفصل الثالث فقد تطرق فيه إلى موضوع تصنيف الجند فقد أقر بأن يجعل كل صنف منهم على مدة اقتداء بسيرة الرسول صل الله عليه وسلم في تصنيف جيشه أصنافا مصنفة كل قبيلة متميزة عن غيرها، مؤكدا على أن هذه الطريقة تقتضيها حسن السياسة في تدبير أمر الجند وتجنب الإختلاف وافتراق الكلمة لما في خلط الفرق المختلفة من تعريضهم لثورات الفتنة بينهم بسبب إختلاف طباعهم وميل كل فريق لمن انتسب إليه بمقتضى الطبع البشري...[4]

نلاحظ أن ابن العنابي في طرحه هذا إستند بغزوتي بدر وأحد وكيف قسم فيهما الرسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه، وفي هذه الفكرة انتقده أحدهم بقوله يعتبر اليوم وفي عصر القوميات محل نظر مع ان ابن العنابي تحدث في فصوله عما كان وليس عمّا سيكون، وأنه أفتى بإتباع النصارى في كل جل قل من نظامهم العسكري وليس في تصنيف القبائل وإنما تصنيفه الفرق...[5].

وخصص الفصل الرابع والخامس والسادس، للحديث عن ضبط الجند، وضبط عددهم وقوادهم وتسويمهم على أساس كل فرقه ,ورتب عدد الجند على نماذج من غزوتي أحد وبدر، ناقلا الحديث

---

[1]– فريد حاجي، المرجع السابق، ص ص 21، 22.

[2]– سورة المجادلة، الآية 11.

[3]– فريد حاجي، المرجع السابق، ص 22.

[4]– أبو القاسم سعد الله، رائد...، المرجع السابق، ص69.

[5]– فريد حاجي، المرجع السابق، ص 23.

الشريف: «خير الصحابة أربعة وخير الرايات أربع مائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولا يهزم اثنا عشر ألف من قلة»، وقد تحدث عن أهمية اتفاق الكلمة في الجيش باعتبارها شرطا لمواصلة الجهاد، أما قائد الجند فقد عرفه بأمير اللواء الذي تنقاد إليه الجيوش وعرف العريف بالنقيب وبين أن السيرة النبوية، واضحة في أن الرايات والأولوية لا يحملها إلاّ المتقدم عن القوم...[1].

وأما تسويم الجند فإنه يقصد به وضع العلامات والمعمول به هو أن يختار إمام المسلمين كلمة أو عبارة ترمز إلى الانتصار على العدو تفاؤلا...[2]، حيث عرف ابن العنابي قائد الجند بقوله «قواد الجيش، جمع قائد الرئيس من رؤسائه الذي تنقاد له الجماعة فهم يتقدمون لتقدم ويتأخرون لتأخره وهو أمير اللواء، وعن نائب القائد يوضح منزلته فهو العريف بمعنى النقيب، وهو شاهد القوم وضامنهم ممن دون الرئيس في كبرائهم كما يؤكد على أن النظام المستحدث يرتب الجند على المئين والعشرات...[3].

أما الفصل السابع، فتناول فيه مسألة تضييق ملابس الجند وتقصيرهم، فإنه اعتمد على السيرة النبوية ,وكذلك الصحابة الذين قال عنهم أنهم كانوا يضيقون اللباس في وقت الحرب وقد قيد ضيق اللباس بهدف المنفعة كخدمة أو دفع البر وليس التشبه بالأعداء ,وقد قال بأن الأفضل أن يكون منتهى طول الثياب إلى نصف الساق، وأن الزيادة على ذلك منتهى الكعب مرخص فيها من غير تضييق ولا تأثيم وأن ما أسفل الكعبين غير مرخص فيه بل متوعد عليه بالنار...[4].

وختم الحديث عن الجوانب المتعلقة بالنظام العسكري بالفصلين الثامن والتاسع ويتعلق الأمر هنا بتعيين مواقف الجند، وكله من مستخرجات حافظته مع إشارة إلى النهي عن تزحزح الجندي من مكانة واستعجاله الغنيمة قبل الإنتهاء من المهمة المسندة إليه ,وكذا مسألة عقد الألوية والرايات حيث عرفهما بمايلي: «الألوية جمع لواء، العلم الصغير، والرايات علم أكبر من اللواء وأصغر من

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، رائد...، المرجع السابق، ص ص 69، 70.

[2]- نفسه ,ص 70.

[3]- فريد حاجي، المرجع السابق، ص23.

[4]- أبو القاسم سعد الله، رائد...، المرجع السابق، ص ص 70، 71.

البند»، مستدلا على أن لواء الرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوم الفتح أبيض وأن رأيه كانت سوداء وتدل على العقاب ولاحظ وجوب إثار قواد الجيوش بالراية أو العلم الأكبر...[1].

وذكر في بقية الفصول وعلى وجه الخصوص الفصل العاشر والحادي عشر والثاني عشر موضوع الصناعات الحربية حيث يذكر بضرورة الأخذ عن الأمم الأوروبية ما توصلوا إليه من صنائع حيث يقول «... وإنهم إذا ابتدعوا من أدوات الحرب وصنائعه أمرا لزمنا بذل الوسع في تعلمه ومجاورتهم فيه، وإنه إذ لم يكن استعلامه إلاّ من قبلهم وجب استعلامه منهم لأنه مستطاع لنا» وهي دعوة صريحة إلى وجوب تعلمهم، حتى وإن كان من غيرنا وحينما أراد توضيح المقصود من معناه في هذا المجال عرف التدريب...[2].

إذن عرف التدريب على أنه من الدربة بالضم، وهو تعليم صناعة الحرب التي هي علم بكيفيات أعماله مع مباشرتها لتحصيل ملكته التي هي علم بكيفيات أعماله مع مباشرتها لتحصيل ملكته التي هي كيفية نفسانية تصدر عنها أفعاله الاختيارية من غير روية ,أما عن برنامج التدريب العملي والنظري للجندي نجده يذكر الإجتماع، الافتراق، الإقدام، الإحجام، الكر والفر، الظهور والنزول، والتجلد للأعداء والتثبيت والتحريض ورفع الصوت وخفضه وركوب البحر والحراسة وغير ذلك ,كما يؤكد على إقامة الحصون وحفر الخنادق والإحتساب فيها.

أما عن حيل الحرب فإنه يدعوا إلى زرع الجواسيس في صفوف العدو وتحطيم معنوياته بمنح الهدايا لقواده ودس الكتب على ألسنتهم، استعمال الخدعة وقد أورد بهذا قصة طويلة من حروب الأندلس مؤكدا على أهمية المشورة في الحرب.

زيادة على هذا فإن ابن العنابي يجوز تعلم العلوم الآلية من الكفرة قياسا على إجازة تعلم اللغات من الأمم الأخرى ونفس الحال بالنسبة للصناعات، وخاصة وأن هذا الأمر له منفعة على الأمة الإسلامية في أمر دينها ودنياها وبذلك فإن دعوته كانت صريحة بلا تردد...[3].

---

[1]– فريد حاجي، المرجع السابق، ص ص 23، 24.

[2]–نفسه ، ص 24.

[3]– أبو القاسم سعد الله، رائد...، المرجع السابق، ص ص 71، 75.

المبحث الرابع
الفكر الإصلاحي لخير الدين التونسي
في المجال السياسي والعسكري

أولا– المجال السياسي.

ثانيا– المجال العسكري.

إذا أردنا أن نعرف خبايا فكر خير الدين التونسي وأهم القضايا التي طرحها يتوجب علينا الرجوع إلى كتابه» أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك»، حيث نجد أنه حذى حذو ابن خلدون فضمن كتابة بمقدمة وتاريخا، إذ ركز في المقدمة على الأسباب التي أفضت إلى إنحطاط المسلمين بعد عصور الازدهار التي عرفوها وأيضا على سبيل نهضتهم، واتجه في تاريخه إلى مجال آخر يحس القارئ بأنه لا رابط يربط بين المقدمة والتاريخ ففي هذا التاريخ يضعنا خير الدين التونسي وجها لوجه مع المشهد الأوروبي، بما عليه من رقي وتمدن وحضارة، حيث تطرق إلى النظم العسكرية والإدارية والسياسية والمالية لهذه الدول بما فيما الدولة العثمانية، ومن هنا طبيعته العلاقة بأن خير الدين التونسي شرح في مقدمته أسباب تخلف العرب والمسلمين وفي تاريخه بين أسباب تقدم الأمم الأوروبية...[1].

أولا– في المجال السياسي.

ينطلق خير الدين في موضوع فكرة الإصلاحي من أرضية الواقع التي يعيش فيها، والتي دب فيها الفساد وانتشر فيها الظلم،...[2]، واستهل خير الدين مقدمة كتابه بذكر أهمية العدل في إقامة العمران واعتبره الدعامة الأولى التي تقوم عليها الأمم حيث يقول «سبحان من جعل من نتائج العدل العمران»...[3].

لقد أكد خير الدين التونسي على أن الظلم مؤذن بخراب العمران كيفما كان، لأن النفوس جبلت على حب السيطرة وحرية التصرف المطلق وخاصة على يد الملوك وهو ما كان مجبلة للظلم على اختلاف أنواعه، حيث أنه أطلق الملوك أيديهم في حكم عبيد الله من غير تقييد بقانون عقلي لمنافاته لشهواته، ولا لشرع لعدم وجود من يشدد عليه...[4].

واعتبار المصالح المناسبة للوقت والحال، وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح وارتكاب أخف الضررين اللازم إحداهما إلى ذلك...[5].

وإذا تأملنا نصوص الشريعة نجد أنها تلح على الأخذ بالعدل وتحكيمه في إدارة البلاد والعباد

---

[1]– سمير أبو حمدان، المرجع السابق، ص ص 60،61.

[2]– أحمد أمين، المرجع السابق، ص 163.

[3]– خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ط1، مطبعة الدولة بحضارة تونس المحمية سنة 1283 هـ ص 3.

[4]– سمير أبو حمدان، المرجع السابق، ص107.

[5]–نفسه

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾[1]

من المبادئ التي نادى بها خير الدين التونسي وجوب المشورة وتغيير المنكر نتائجه حيث يقول ومن أهم أصولها وجوب المشورة التي أمر الله بها رسوله المعصوم صلى الله عليه وسلم مع استغنائه عنها بالوحي الإلهي، وبما أودع الله فيه من الكمالات، فما ذاك إلاّ لحكمة أن تصير سنة واجبة على الحكام بعده قال ابن العربي (المشورة أصل في الدين وسنة الله في العالمين وهي حق على عامة الخليفة من الرسول إلى أقل الخلق ومن كلام على رضي الله عنه الصواب مع ترك المشورة...[2]

إن الأمم الإسلامية لا تصلح إلاّ بنظام الشورى الذي بقيد الحاكم...[3]، أما عن الذين يجب استشارتهم فهم أهل الحل والعقد وهؤلاء يجب عليهم مصارحتهم بالحرية وهديه إلى الصراط المستقيم وردعه عن عمل السوء وهذا ما تأكد في الأمة الإسلامية في عصورها الوسطى...[4]

إن تغيير المنكر واجب على كل مسلم عالم بالمنكرات وقال حجة الإسلام الغزالي، الخلفاء والملوك الإسلام يحبون الرد عليهم لو كانوا على المنابر فقد قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وهو يخطب " ايها الناس من رأس فيكم اعوجاجا فليقومه فقام له رجل وقال والله لو رأينا فيك إعوجاجا لقومناه بسيوفنا فقال الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يقوم إعوجاج عمر بسيفه ولا شك أن مثل هذا الإمام العادل الشديد في حماية الدين وحقوق الخلافة، ولو لم يرى مساعا من الشريعة لذلك الكلام مع ما فيه من الشدة ما حمد الله عليه..[5]

حيث يقول ابن خلدون في فصل الإمامة لما كانت حقيقة الملك أن الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه في الطالب جائزة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لحمله إياهم في الغالب على ماليس في طوقهم من أغراضه وشهواته, ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المقضية إلى الهرج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة مسلما

---

[1]– سورة النساء، الآية 58.

[2]– خير الدين التونسي، المصدر السابق، ص 120.

[3]– أحمد أمين، المرجع السابق، ص 163.

[4]– آليرت حوراني، المرجع السابق، ص 115.

[5]– خير الدين التونسي، االمصدر السابق،ص120.

الكافة وينقادون لأحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم فإذا كان هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية نافعة...[1].

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقود إلى بقاء الأمة محترمة ويذب عن حوزتها ومع هذا ألا ينكر عاقل أن يوجد من الملوك من يحسن التصرف في المملكة بدون المشورة، ويحمله حب الإنصاف على الاستعانة بالوزير العارف النصوح في ما يشكل عليه من المصالح، لكن لكون ذلك من النادر الذي لا يعتبر لاستناده إلى أوصاف قل ما تجتمع في الإنسان وعلى فرض إجتماعها ودوامها له تزول بزواله وجب علينا أن نجزم بمشاركة أهل الحل والعقد للملوك في كليات السياسة مع جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين لها بمقتضى قوانين مضبوطة مراعي فيها حال المملكة أو جلب لخيرها وأحفظ لها...[2]، حيث يروج خير الدين للمفهوم الديمقراطي الغربي مستندا في ذلك إلى تراث الشورى الإسلامي...[3].

بعد أن أكد خير الدين التونسي على أهمية المشورة في الحكم إنتقل إلى وصف حال الملوك مبرزا أن مقتضى الطبيعة البشرية لا تخرج عن صور ثلاث، لأن الواحد منهم إمّا أن يكون كامل المعرفة والمحبة لخيرية الوطن قادرا على اجراء المصالح لمراعاة الأصلح، أو أن يكون كامل المعرفة ولكن له أغراض وشهوات خصوصية تصده عن مراعاة المصالح العمومية...[4].

أو أن يكون ناقص المعرفة ضعيف المباشرة ,ومثل هذه الصور الثلاث يعتبر في الوزير المباشر ولا يخفى أن لزوم المشورة ومسؤولية الوزراء في الصورة الأولى لا يعطل كامل المعرفة عن مقصده الحسن بل يعينه حيث أن آراء الجميع متعاضدة على المصلحة وبذلك يستقيم حال المملكة ولو كان الوالي أسير الشهوات أو ضعيف الرأي ,كما قال المترجم ستورد مل الإنجليزي أن رفعة شأن الأمة الإنجليزية بلغت الغاية في مدة الملك جورج الثالث الذي كان مجنونا ومع ذاك إلاّ بمشاركة أهل الحل والعقد ومسؤولية الوزراء لهم.

---

[1]- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1431 هـ/2001م، ص ص 238،237.

[2]- خير الدين التونسي، المصدر السابق، ص ص 13، 14.

[3]- سمير أبو حمدان، المرجع السابق، ص 71.

[4]- خير الدين التونسي، المصدر السابق، ص 14.

بعد أن ذكر أهمية إستناد الملوك إلى وزراء يدلونهم على مواطن الخير ويخبرونهم مواطن الشر ذهب الى أن استقامة سيرة الوزير لا تعني بمصالح المملكة إذ لم يكن لإدارتها قوانين ضابطة...[1]، حيث أننا إذا افترضنا أن سيرة الوزير كانت حسنة فإننا نجد أن أمر الوزير دائر بين حالتين إمّا أن يوافق الملك وحاشيته على أغراضهم وشهواتهم مرجحا بذلك حفظ نفسه وفي هذه الحالة فإن المملكة تتعرض للضرر، وإمّا أن يخالف أهواء الملك لما يرى فيه من الضرر وهنا يعرض نفسه لخطر تحزب حساده اللذين غاية أملهم إضراره وتعطيل تصرفاته الحسنة التي تحول بينهم وبين تحقيق ما يصبون إليه من مصالح شخصية ويلجئون, إلى أسلوب الوشاية به غلى الملك واتهامه بأنه يرغب في الإستبداد على الملك، وهنا يقف الوزير أمام أمرين إمّا أن يداري الملك ويوافقه على شهواته ورغباته وإمّا أن يلجأ إلى الاستعفاء من الخدمة...[2].

وهو في كلتا الحالتين واجب عليه بذل الجهد إمّا بالنصح للملك وتوضيح المعايب وكشف السبل البينة التي تقود بالوطن إلى بر النجاة من عواقب القرارات المضرة به، وإن عجز عن إقناع الملك هنا يتوجب عليه الإمتناع من الموافقة على ما يضر ,لأنه إذا وافق على مع علمه بمضرة ذلك فإنها تعتبر خيانة للدين ثم الوطن...[3].

إن استقامة الوزير لا تكفي وحدها لضمان جلب المصالح ودرء المفاسد إن لم تكن مرفقة بقوانين ضابطة محفوظة برعاية، ويشهد لذلك حالة الممالك الأوروبية في القرون الماضية قبل تأسيس القوانين فقد كان لهم في ذلك الوقت من الوزراء من لهم باع في المعرفة والمروءة ومع ذلك لم يتيسر لهم حسن الحال...[4].

من المبادئ الأساسية التي ركز عليها خير الذين التونسي هو عواقب الإستبداد والعمل بالرأي الواحد، وأنه يتوجب إشراك أهل الحل والعقد وهم العلماء والأعيان، حيث منحهم حقوق النواب المشورة، أما عن طريق اختيار ممثلي العامة فقد بين أن الأوروبيين ينتخبون جماعة من أصحاب المعارف والكفاءة ليمثلوهم، أما عند المسلمين فإنه يوجد أهل الحل والعقد المكلفون بالأمر بالمعروف

---

[1]- سمير أبو حمدان، المرجع السابق، ص 71.

[2]- خير الدين التونسي، المصدر السابق، ص 15.

[3]- نفسه,ص16.

[4]-خير الدين التونسي, المصدر السابق,ص16.

والنهي عن المنكر الذي هو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل وإذا تغيبت جماعة صار فرض عين عليهم بالخصوص...[1].

ومن الأمور التي ركز عليها خير الدين التونسي وألح عليها إشراك أهل الحل والعقد في اتخاذ القرارات مستشهدا بسيرة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحينما وضعها في ستة من الصحابة قائلا لهم انقسموا اثنين وأربعة فكونوا مع الأربعة ميلا منه إلى الأكثرية لأن رأيهم أقرب إلى الصواب، وأن إشراك أهل الحل والعقد ليس فيه تضييق لدائرة خطة الإمامة وعموم تصرفها باعتبار أن نظر أهل الحل والعقد بمنزلة نظر الإمام ومراعاة كونه مضرا له لإستبداده وإدارته مع ما يستبد به من التصرفات التي لا تقتضي المشاركة كإجراء الخطة السياسية والتجربة مع الأجانب ونصب أرباب الخطط وتأخيرهم وتنفيذ سائر الأحكام...[2].

وعن أهل الحل والعقد فيقول بأن هناك مجلسين، المجلس الأعلى المركب من أمراء العائلة الملكية ومن ما ينتجه الملك من أعيان المملكة ومجلس الوكلاء المركب من من ينتخبهم الأهالي...[3].

للمناضلة عن حقوقهم واحتساب على الدولة، فأهل هذين المجلسين هما أهل الحل والعقد, بحيث لا يتدخلان في تفاصيل الإدارة وإنما دورهما وضع القوانين والمحافظة عليها ومراقبة أعمال الدولة وسؤال الوزراء والقدح في سيرتهم خصوصا مجلس الوكلاء وعلى الوزراء الجواب على جميع ذلك وتقوم المجادلة بالمجلس علنا بين القدح والمدافع ليتضح الحال، ويظهر المصيب من المخطئ فإذا اتفق أغلب مجلس الوكلاء على تصويب سياسة الوزراء بعد التأمل في أدلة القدح والمدافع يسن للوزراء البقاء في الخدمة ويحصل عند ذلك المنفعة...[4].

كما يشير إلى أن مجلس الوكلاء هو أهم مجلس لأنه يمثل إرادة أهل المملكة وباقي الوزراء ومسؤولياتهم بحيث مراقبة مجلس الوكلاء، وهم يثبتون مناصبهم أو يعزلونهم في حال مخالفة السلطة...[5]، أراد خير الدين التوفيق بين المفاهيم الغربية والواقع العربي الإسلامي بين مفهوم

---

[1]- نازك سابايارد، المرجع السابق، ص 68.

[2]- خير الدين التونسي، المصدر السابق، ص 17.

[3]- عزت قرني، العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، دط، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 30، عالم المعرفة، الكويت، 1980، ص 108.

[4]- عزت القرني ،المرجع السابق، ص 108.

[5]-نفسه.

الديمقراطية الغربي، أو بين مفهوم نواب الأمة ومفهوم نواب الأمة ومفهوم أهل الحل والعقد ومحالة تكييف الوسائل التي أوصلت أوروبا إلى الرقي ونصوص الشريعة الإسلامية...[1].

ويستحب أنه من الشروط الضرورية التي تشترط في أهل الحل والعقد أن يكونوا عالمين بأمور الشريعة وأمور الدنيا, وبذلك يجتنب أكبر مسببات إعاقة الإصلاح وهي أن يوجد رجال يعلمون أمور الشريعة ولا يعلمون أمور الدنيا يردون أن يطبقوا أحكام الشريعة بحذافيرها بغض النظر عن ماجد واستحدث ,ورجال السياسة يعرفون أمور الدنيا ولا يعرفون الدين يردون أن يطبقوا النظم الأوربية بحذافيرها بغير الرجوع إلى الدين، وهنا وجب الضرر في كلتا الطائفتين الأفضل لو جمع في شخص واحد فهناك، أصول يجب أن تراعى، وهناك أمور لم ينص عليها تقتضيها مصالح الأمة يجب أن تقاس بمقياس المنفعة والمضرة ويعمل فيها العقل...[2].

ركز خير التونسي بدرجة كبيرة على ضرورة الإقتباس من الغرب والأخذ من علومهم إذ يبين أنه كيف يسوغ للعاقل حرمان نفسه مما هو مستحسن في ذاته ويستسهل الامتناع عما به قوام نفعه بمجرد أوهام مخيالية واحتياط في غير موضعه ومن ما يحس سوقه هنا نقول بان بعض الأوروبيين الذين كان لهم مؤلفات في السياسات الحربية ذكروا بان المماليك التي لا تننسج على مجاوريها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية والتراتيب العسكرية يوشك أن تكون غنيمة لهم ولو بعدحين وخص التراتيب الحربية لأنها موضوع كتابه وإلا فغيرها مثلها [3].

إن على المسلمين أن يعترفوا بأن عصرهم الذهبي قد أدبر وعصر آخر قد أقبل بمعنى آخر أنه وجب عليهم الاعتراف بأنهم لم يعودوا مثلما كانوا عليه في القرون الوسطى فالظروف تتغير معها الأمم والشعوب، وأن التقدم يلح علينا الاقتباس من الآخرين وذلك بمعرفة أحوال من ليس بحزبنا، إلا انه يجب أن يقتبس وقف قاعدة محكمة البناء، بحيث يتوافق مع متطلبات العصر وما لا يتناقض مع الشريعة الإسلامية وهذا ما يؤكد على انه لم ينسلخ من شخصيته[4].

---

[1]- سمير أبو حمدان، المرجع السابق، ص 68.

[2]- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 165.

[3]- خير الدين التونسي، المصدر السابق، ص 09.

[4]- سمير أبو حمدان، المرجع السابق، ص ص 62-63.

إنه يتوجب على المسلمين أن لا يبقوا مكتوفي الأيدي يندبون مأساتهم ويندبون قدرتهم وإنما عليهم إذا ما أرادوا أن يخرجوا من مخبئهم أن يدركوا أسباب تقديم الأمم وتأخرها جيلا بعد جيل ,وان يلتفوا نحو أوروبا لمعرفة السر الذي أدى إلى نهضتها والوقوف على الوسائل التي أوصلتهم إلى ذلك[1].

أكد على أن من أسباب تفوق أوروبا وقوتها هو اعتمادها على العلوم التطبيقية وتطويرها داعيا إلى ضرورة الإقتباس, من هذه العلوم لتحقيق النهضة المتوخاة عند المسلمين.[2]

وبعد أن أكد عل أهمية الأخذ عن الأوروبيين سلط الضوء أيضا على أصحاب النظرة السلبية للمدنية الغربية التي لا زالت تؤثر في بعض فئات الأمم الإسلامية بحيث أنها تخوف من تعليم المرأة والاستمداد من التشريع الحديث وهذا ما يساهم في تفوق النصارى ويزيد الأمور تعقيدا ويرد أيضا على المنتقدين الإجراءات حيث يقول بأنه لمن الأكيد أن هذا الأمر يساعد على التدقيق والتأمل الجيد في القضايا المطروحة مما يزرع الثقة بين المتخاصمين ويتأكد لكل ذي حق أن يؤخذ حقه بقوة الشرع والقانون ,وأنه يجب أن لا نحمل بعض الأخطاء التي يرتكبها الموظفين على هذا الجهاز، لذا يتوجب اختيار موظفين أكفاء، أما الخوف من زيادة الضرائب فإن نظام الشورى ومشاركة الحاكم في اتخاذ القرارات ينفع أكثر مما يضر، لأن فرض الضرائب تخضع لأهل الحل والعقد الذين بدورهم لا يوافقون على ضريبة تضر مصالح الأهالي....[3].

وعلى أي حال فإننا يمكن أن نختصر الخطاب الإصلاحي لخير الدين التونسي النقطة الأولى تمثلت في تحديث مؤسسات الدولة والأخرى في إقامتها لأن تونس في ذلك الوقت كغيرها من الأمم الإسلامية قد أقامت مؤسسات سياسية وإجتماعية، ثم في مواجهة الغزو والأوروبي الذي كان يهدف إلى أمرين نهب ثروات المسلمين وطمس شخصيتهم الثقافية والحضارية, وفي مواجهته لهذين الأمرين أي التحديث ومواجهة الزحف الأوروبي كان عليه لزاما مواجهة تيارينّ: تيار التغريبي الموالي للغرب والتيار الثاني هو ذوي الغفلات من عوام المسلمين كما يسميهم والذين تمادوا في رفض الغرب جملة وتفصيلا، باعتبار أنه كافر، إذ ترسخ في أذهان هؤلاء أن ما يصدر من الغرب من علوم ومعارف

---

[1]- سمير أبو حمدان،المرجع السابق، ص 87.

[2]- علي الحافظة، المرجع السابق، ص 236.

[3]- أحمد أمين، المرجع السابق، ص162.

وتقنيات حديثة على الرغم من أنها موافقة لشرعنا إلاّ أن عقول هؤلاء تقول بأن جميع ما عليه غير المسلم من تراتيب وسير يجب أن يهجر...[1].

ثانيا– في المجال العسكري:

إن العالم الإسلامي في الفترة التي كان بعيش فيها خير التونسي، وصف بالضعف والهوان ,ومن ثم فالواجب يقضي الدفاع عنه وهذا لا يستحق إلا باستعادة القوة والأخذ بالتعاليم التي استحدثتها الغرب[2]، وهما أجمع القوة بصحته جواز الأخذ من الأمم الأخرى فيما يعود بالنفع في المصالح الدنيوية، فليس بالناس يعرف الحق ولكن بالحق يعرف الناس والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدت [3].

ويستشهد خير الدين التونسي بقصة سلمان الفارسي رضي الله عنه حينما طلب من المسلمين أن يطوقوا مدنهم بخندق حيث يحاصرهم العدو واتقاء من هجومهم عليهم ,فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأيه وحفر خندقا للمدينة في غزوة الأحزاب، وقال علي كرم الله وجهه لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال، وإذا صاغ السلف الصالح أخذ مثل هذا المنطق من غير أهل ملتهم وكذلك ترجمتهم من لغات اليونان لهو أكبر دليل على جواز الأخذ من الأمم الأخرى فيما يعود بالنفع على الأمة الإسلامية.[4]

كما أخذ المسلمون من اليونان علومهم مثل المنطق واستفادوا منه وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ,قال لخالد بن الوليد عند إرساله لقتال أهل الردة في اليمامة «إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلام الذي يقاتلونك به، السهم بالسهم، والرمح بالرمح، والسيف بالسيف» ولو أدرك هذا الزمان لقال المدفع للمدفع والبارجة للبارجة والمدرعة للمدرعة، ولا يمكن الاستعداد لمنازلتهم بمثل سلاحهم إلا بالعلم وأسباب العمران.[5]

---

[1]– سمير أبو حمدان، المرجع السابق،ص ص 81، 82.

[2]– فريد حاجي، المرجع السابق، ص 26

[3]– محمد كامل الخطيب، المرجع السابق، ص 110.

[4]–خير الدين التونسي، المصدر السابق، ص 07

[5]– أحمد أمين، المرجع السابق، ص ص 159–160.

إن الممالك التي لا تنسج على منوال مجاوريها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية، أو من غيرها ومما يوجد ما قرأناه قوله صلى الله عليه وسلم لعاصم بن ثابت من حديث من قاتل فليقاتل كما يقاتل ويوضح معناه ما تضمنه وصية الصديق لخالد بن الوليد، والمملكة التي يغيب عنها ما استمدته جاراتها من الممالك تكون غنيمة لهم فيما بعد.[1]

و يواصل خير الدين دعوته للأخذ من الأمم الأخرى في المجال العسكري وغيره ,إذ يقول»و لو أدرك هذا الزمان لأبدل ذلك بمدفع الشخشان ومكحلة الإبرة والسفينة المدرعة ونحوها من إختراعات التي تتوقف عليها المقاومة ولا يحص بدونها الإستعداد، الواجب شرعا الذي يستلزم معرفة قوة المستعد له والسعي في تهيئة مثلها أو خيرا منها ومعرفة الأسباب المحصلة له.[2]

هذه الفقرة الوجيزة لخص فيها خير الدين دعوته لتحديث الجيش دونما الغوص في أساليب وطرق التحديث هذا أو ربما كان مدركا للإيقاع الذي تسير به حركة التطور والتقدم في الميدان العسكري, ولعل استشهاده بمقولة ذلك الأوروبي وتحذيره من مغبة الإحجام عن الأخذ بأسباب المدينة الحديثة، نبهته إلى واجب النهوض بإصلاح الجيش فالمقصود من الجملة ولا يحصل بدونها لإستعداد (أي الاختراعات) الواجب شرعا، وهي تنبيه القائمين على شؤون الأمة الذين أهملوا هذا الجانب، وهو ما يخالف الشرع وبالتالي ترك الجهاد وما يتطلبه من تجنيد الأمة وامتلاك وسائل الدفاع عن بيضة الإسلام، إذ لا يقضي ترك الإستعداد إلى ترك الجهاد وهو نقض لفريضة دينية، كأنه لم يشر إلى كلمة الجهاد أصلا ومعرفة الأسباب المحصلة له ويعني بها الصناعة الحربية التي أقامها على أساس الرياضيات والفيزياء التجريبية.

إن خير الدين كان واعيا بما يقول في خصوص هذا الجانب، لأنه ابن المؤسسة العسكرية وتقلد مناصب عالية فيها، بل كان مشرفا على مكتب العلوم الحربية منذ تأسيسه في عهد أحمد باشا، ومن ثم لم يكن خافيا عليه الطرائق الموصلة إلى ذلك، والأساليب الخاصة بهذا الشأن, وباختصار فإن الواقع دفع كلاهما للمطالبة بضرورة مجاراة الخصم والتفوق متبعا في ذلك أسلوب النصيحة.[3]

---

[1]- خير الدين التونسي، المصدر السابق، ص 09.

[2]نفسه

[3]- فريد حاجي، المرجع السابق، ص 26.

لقد اعتبر ما جاء به خير الدين التونسي وما حواه كتابه أقوال المسالك في معرفة أحوال الممالك عبارة عن نصيحة لكافة المسلمين حيث خاطبه الشاعر بقوله:

نعم على الشرع قد استنبطها مراعيا فيها حال الناس والزمن

حق على أمة الإسلام شكركم ورعي تأليفكم بالقلب والأذن

كما أن الأمير عبد القادر ينظر إلى كتاب أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك على أنه كتاب يبهر العقول لتناوله فنون المعارف وقضايا المعقول والمنقول فاتفقت القلوب على تفضيله، حيث أن الأمير عبد القادر لم يعجب فقط بما جاء به في الدفاع عن الشريعة الإسلامية ولكن أيضا بما حواه من دعوة للأخذ بأسباب الغرب وحضارتهم فيما لا يخالف قوانين الشريعة.[1]

[1]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1996، ص 168.

خاتمة

خاتمة:

خلاصة القول أن ابن العنابي وخير الدين التونسي ثارت تأثرهما على الواقع المزري الذي كان يعيشه العالم العربي والإسلامي من تخلف وضعف، إذ نجد أن ابن العنابي رأى تداعيات ضعف الجهاز العسكري في إيالة الجزائر وانتشار الفساد في صفوفه حاله حال الإنكشارية في الدولة العثمانية، حيث أن هذا الفساد قي قطاع حساس من مؤسسات الدولة كان سببا رئيسيا في وقوع الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي، إضافة إلى الفساد الذي دب في الجهاز السياسي وما ساعد ابن العنابي في بلورة فكرة هذا وهو تجربته في مصر، حيث رأى أن تجربة محمد علي باشا التحديثية وما انجرت عنه من إيجابيات يدعو للافتداء، وهنا يظهر أن ابن العنابي لم يأتي بأفكار إصلاحية من خارج الواقع المعاش وأراد تطبيقها على الواقع وإنما طرح أفكارا إصلاحية انطلاقا من الواقع المعاش.

كذلك الحال لخير الدين التونسي فإنه لما ترعرع في قصر الباي وشاهد مختلف المظاهر التي تجري داخل القصر وطبيعة النظام السياسي القائم إضافة إلى رحلاته خارج تونس وخاصة إلى فرنسا وما شاهده من تنظيمات إدارية وسياسية ,أراد إعطاء نظرة إصلاحية يمكن من خلالها تحسين أمور تونس بصفة خاصة والعالم الإسلامي بصفة عامة.

إن طبيعة نشأة كل منهما ساهمت في توجيه فكرهما ,حيث نجد أن ابن العنابي كان قاضيا حنفيا وفقيها وهذا ما ظهر جليا في فكره إذ نجد أنه يسوغ أفكاره الإصلاحية انطلاقا من النصوص الشرعية ,لذلك اصطبغ فكره الإصلاحي بصيغة الجانب الديني بدرجة أولى، أما خير الدين التونسي فإن حياته في قصر الباي, وطبيعة التعليم التي تلقاها والوظائف التي تقلدها في القصر زيادة على الثقافة التي استقاها من المؤلفات الإسلامية والكتب الأجنبية الأوروبية، حيث مزج بين هذين النوعين محاولا التوفيق بينهما مع ضمان عدم مخالفة الأفكار الغربية لنصوص الشرع.

إستمد ابن العنابي أفكاره الإصلاحية من المرجعية الدينية، حيث استشهد بنصوص من الكتاب والسنة وسير السلف الصالح بحكم تفقهه في الدين وطبيعة الثقافة التي تلقاها في حياته, وهذا لم يمنع من أن تكون له نظرة حداثية قائمة على أساس الأخذ من الآخر ما يعود بالنفع على المسلمين ما لم يخالف نصوص الشريعة، ومما يلاحظ على ابن العنابي وهو الأمر الذي اختلف فيه مع خير الدين وهو أنه يرى بأن الأخذ من الأوروبيين لا يكو ن إلا في بعض أمور الدنيا لأنه يرى بأن

الشريعة الإسلامية تغني المسلمين على بعض الأفكار الأوروبية وإن كانت هذه الأفكار مساهمة في تقدم هذه الأمم.

أما خير الدين التونسي فقد كانت نظرته للأخذ من الأوروبيين أوسع، حيث اعتمد على نصوص من الكتاب والسنة وسير السلف الصالح محاولا بذلك تقريب المفاهيم الأوروبية من المسلمين ولا يرى بأسا في الاخذ من الغرب جميع ما ساهم في نهوض هذه الأخرى، ما لم تخالف الدين الإسلامي وعلى سبيل ذلك التنظيمات السياسية.

إن مكانة كل من ابن العنابي وخير الدين التونسي كانت ذات قيمة في أوساط مجتمعهما حيث أن ابن العنابي كان فقيها وعالما بأمور الشرع ,بينما كان خير الدين التونسي وزيرا في قصر الباي، وهذا ما كان له صدى في دعوتهما الإصلاحية، في الأوساط والفئات المثقفة على خلاف الأوساط السياسية وأصحاب المصالح الشخصية التي تنظر إلى هذا الفكر على أنه خطر يهدد مصالحا الشخصية لذلك سعت جاهدة لعرقلة تطبيق فكرهما على أرض الواقع.

حذر كل منهما من التيار الإستعماري الزاحف الذي يستهدف الإستيلاء على الأمم الإسلامية ونهب خيراتهم وأن السبيل الوحيد لمواجهته هو ضرورة تحديث المؤسسات وإصلاح أوضاع البلاد، ويظهر هذا في موقف ابن العنابي من الاستعمار الفرنسي، إذ استنكر المخالفات التي ارتكبت من طرف الفرنسيين وخرقهم لبنود معاهدة الإستسلام ,كما كانت له تدخلات معارضة للوجود الفرنسي على أرض الجزائر وهذا ماكان سببا في طرده من طرف الجنرال "كلوزيل".

كذلك الحال بالنسبة لخير الدين التونسي الذي دعى إلى ضرورة تقوية المؤسسة العسكرية والسياسية من اجل استعادة القوة وطرد المحتل.

نلاحظ أن كتاب خير الدين التونسي "أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك" لقي رواجا وشهرة أكثر من مؤلف ابن العنابي والدليل على ذلك أن عبد الحميد الثاني قرأ كتابه وأعجب به ودعاه ليقلده منصب "الصدر الأعظم" وهذا يدل على أن فكره كان مواكبا للموجة الإصلاحية التي دعت إليها الدولة العثمانية، وخاصة وأن دعوته كانت قائمة على أساس الالتفاف بالدولة العثمانية من أجل تقوية الأمة الإسلامية للوقوف في وجه الإستعمار الأوروبي وخاصة وأن التفرق لا يزيد الأمة إلى ضعفا وهوانا.

كان مصير كل منهما أن طرد ابن العنابي من الجزائر نتيجة أفكاره المضرة بالوجود الفرنسي بالجزائر، أما خير الدين فإن أفكاره الإصلاحية التي كانت تعود بالمضرة على أصحاب المصالح الشخصية دعتهم إلى الوشاية به استهدافا لعزله من منصبه وهذا ما تحقق.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم

قائمة المصادر:

2. ابن خلدون عبد الرحمان ، المقدمة، دط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1431 هـ/2001م

3. الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، د ط، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903.

4. إيفالد ، رحلة المبشر من تونس إلى طرابلس سنة م1835، ترجمة وتعليق منير الفندري، د ط، بيت الحكمة، قرطاج، 1991.

5. التونسي خير الدين ، أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك،ط 1، مطبعة الدولة بحضارة تونس المحمية سنة 1283هـ.

6. خوجة حمدان ، المرآة، تحقيق محمد العربي الوبيري، د ط، منشورات AENB، 2005

7. الزركلي خير الدين ، الأعلام قاموس تاجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمقربين والمستشرفين، ج2، ط15، دا العلم للملايين، بيروت، ماي 2002م.

8. سبنسر وليام، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زيادية، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

9. شالر وليام ، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

10. شاوش ابن المفتي حسن بن رجب ، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر وعلمائها، تحقيق فارس كعوان، د ط، بيت الحكمة، 2008.

11. المحجوبي علي ، إنتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تعريب عمر بن ضو: حليمة، قرقوري، وعلي المحجوبي، د ط، سراس للنشر، تونس، 1986.

12. هابنسترايت ج.أ.و (J.E.Hebenstreit) . رحلة العالم الألماني، ج.أ.و، هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس(1145م)، ترجمة وتعليق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، د ط، دار الغرب الإسلامي، تونس.

قائمة المراجع:

1. أبو حمدان سمير ، خير الدين التونسي، د ط، دار الكتاب العالمي، بيروت لبنان، 1993م.

2. احمد، صلاح زكي، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ط1 ,مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2001.

3. أمين أحمد ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، د ط، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.

4. بن قينة عمر ، أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، د ط، إتحاد كتاب العرب، دمشق، 2000م.

5. بن قينة عمر ، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، ط2، كولوريوم، 2012.

6. بوحوش عمار ، التاريخ السياسي للجزائر من البداية إلى غاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997.

7. التميمي عبد الجليل ، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1882–1959م)، د ط، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، زعوان، صفاقس، 1995.

8. الجيلالي عبد الرحمان بن محمود ، تاريخ الجزائر العام، ج4، ط 2014، دار الامة، 2007.

9. الحافظة علي ، الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة من 1798م إلى 1914م، الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية: دط، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1987.

10. حوراني ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة (1798–1934)، دط، ترجمة عزقول عزقول، دار النهار للنشر، ش.م.ل، بيروت لبنان.

11. خوجة بن محمد ، صفحات في تاريخ تونس، تحقيق وتقديم حمادي الساحلي، الجيلالي بن الحاج يحي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنانن 1986.

12. درمون يونس ، تونس بين الحماية والإحتلال، د ط، مكتب تونس الحرة، مطبعة الرسالة.

13. الزمرلي الصادق ، أعلام تونسيون، تقديم وتعريب حمادي المسامي،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

14. سابايارد نازك ، الرحالة العرب وحضارة الغرب،ط 2، النهضة العربية الحديثة نوفل، 1992.

15. سعد الله أبو القاسم ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،ج 4،ط 1، دار الغرب الإسلامي، 1996.

16. سعد الله أبو القاسم ، المفتي الجزائري ابن العنابي رائد الجديد الجزائري من 1775–1852م، د ط، موقم للنشر،.

17. سعد الله أبو القاسم ، محاضرات في تاريخ الجزائر منذ بداية الاحتلال، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

18. سلطان جاسم ، النهضة... من الصحوة إلى اليقضة، د ط ،سلسلة أدواته القادة.

19. الشاطر خليفة وآخرون، تونس عبر التاريخ،ج3 د ط، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2005.

20. الشريف محمد الهادي ، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط3، دار حمراس للنشر، 1993.

21. الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، ط2، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس.

22. عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة اعلام الجزائر 1830، 1954م، د ط، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954، 2007.

23-قرني عزة، العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، دط، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 30، عالم المعرفة، الكويت، 1980.

23. كامل محمد الخطبي ، الاصلاح والنهضة، ج1، دط، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1992.

24. المدني أحمد توفيق ، هذه هي الجزائر، د ط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرةن 2001.

25. مسعود كواتي سيدي موسى محمد الشريف ، أعلام مدينة الجزائر ومتيجة، ط2، منشورات الحضارة، الجزائر، 2010.

26. الميلي مبارك بن محمد الهلالي ، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج3، د ط، مكتبة النهضة الجزائرية، 1964.

27. هلايلي حنيفي ، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1428هـ/2007هـ.

الرسائل الجامعية:

1. حاجي فريد ، عرض لنظرة ابن العنابي وخير الدين التونسي،الإصلاح المسعى والمال, مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، السنة الدراسية 2000-2001، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية بوزريعة.

2. بشاني أحسن ، خطاب الحداثة في الفكر الفلسفي العربي المعاصر وإشكالية الخصوصية والعالمية، أطروحة لنيل شهادة دكتورا دولة في الفلسفة، 2005، 2006، جامعة الجزائر.

فهرس المحتويات

الفهرس المحتويات

مقدمة ..... أ

المبحث الأول:أوضاع الجزائر و وتونس خلال عصري ابن العنابي وخير الدين التونسي 05

أولا– أوضاع الجزائر خلال عصر ابن العنابي 06

4– الأوضاع السياسية والإدارية: 06

5– الأوضاع الاقتصادية والعسكرية:..... 08

6– الأوضاع الاجتماعية والثقافية:..... 10

ثانيا– أوضاع تونس خلال عصر خير الدين التونسي 12

4– الأوضاع السياسية والعسكرية: 13

5– الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية:..... 15

6– الأوضاع الثقافية:..... 17

المبحث الثاني: السيرة الذاتية لابن العنابي وخير الدين التونسي 19

أولا– ابن العنابي..... 20

1– نشأته وأسرته..... 20

2– ثقافته..... 20

3– وظائفه 22

ثانيا– خير الدين التونسي 23

1-نشأته 23

2-ثقافته..... 24

3-وظائفه..... 26

المبحث الثالث: الفكر الإصلاحي لابن العنابي في المجال السياسي والعسكري 28

أولا- المجال السياسي. 29

ثانيا- المجال العسكري 35

المبحث الرابع: الفكر الإصلاحي لخير الدين التونسي في المجال السياسي والعسكري 40

أولا- المجال السياسي. 41

ثانيا- المجال العسكري. 48

خاتمة 51

البيبليوغرافيا 56

فهرس المحتويات 59